الفصل الحادى عشر

القدوة

obeikandi.com

obeikandl.com

بين النظرية والتطبيق

تمر المذاهب والتيارات الفكرية فى المجتمعات البشرية — وكذلك كل ما يطبقه الإنسان فى مجالات حياته المختلفة — بأربع مراحل ، وهى : التفكير ، والتنظير ، والتطبيق ، والانتشار ، إذ أن كل نظام أو أسلوب للحياة كان فى الأصل فكرة فى الذهن ، ثم لما تبلورت الفكرة ونضجت ، خرجت إلى الوجود على شكل نظرية ، تحدد معالمها ، وتوضح مضمونها ، وتبرز أهميتها فى حياة الإنسان ، فإذا كانت متطابقة مع طبيعة الإنسان ، ومنسجمة مع حياة المجتمعات ، حيث تلبى حاجات الفرد ، ولا تتصادم مع أساسيات الاجتماع ، أمكن تطبيقها وانتشارها بين الناس ، ثم تصبح عادة يألفونها ويتمسكون بها ، ويدافعون عنها ، بل يصل الأمر أحياناً إلى بذل الأرواح فى سبيل بقائها ، لو هددت بفكرة أخرى لا يقبلها الناس ، ولا يشعرون نحوها بانعطاف وانسجام .

فطبيعة الفكرة ، ومدى وضوح نظريتها المعبرة عنها ، وتلبيتها لحاجات الناس ، وتفوقها على ما لديهم من قيم وعادات فى مجال الحياة العملية ، تلعب دوراً كبيراً فى مدى اقتناع الناس بها ، وسرعة استجابتهم لها ، والتفانى فى تطبيقها ونشرها بين الناس ، إذ غالباً ما يبذل المقتنع بفكرة ما ، أو المؤيد لنظام معين ، جهداً كبيراً فى مجال إقناع الناس بهذه الفكرة ، وكسب أكبر عدد من الناس إليها ، حتى يؤمن استمرارها فى الوجود ، ويرى قوة تمكنها فى حياة المجتمع ، لأنه يشعر بأنها أصبحت جزءاً من ذاته ، فكلما قويت وانتشرت أحس بأن هذه القوة — وذاك الانتشار — تمده بالحياة ، وتساعده على تحقيق ذاته ، وتثبيت كيانه . ولهذا يحاول دائماً سد الثغرات التى يتسرب الضعف منها ، ويعمل على تطويرها باستمرار حتى لا يتسرب إليها وهن الشيخوخة ، وضعف التقادم ، ولا يصيبها التحلل بسبب جمودها أمام حركات التغير المستمر ، وموجات التيارات المتجددة باستمرار .

هذه هى معالم أى مذهب ، أو نظام بشرى فى المجتمعات الإنسانية ، سواء كان دينياً أو غير دينى : فكرة ، فنظرية ، فتطبيق ،فانتشار ، فتغيير وتبديل لاستمرارية الوجود . فلو كانت الفكرة غير مكتملة استحالت صياغتها فى نظرية ، ولو صيغت فى نظرية وكانت غير موائمة لحياة الإنسان ، كأن كانت خيالية غير قابلة للتطبيق ، أو تصادمت مع متطلبات

الحياة وضروراتها ، لعجز المعتنقون لها عن تطبيقها . فإذا اجتمع فيها جميع مقومات الصلاحية ، وفقد المؤيدون لها ، الولاء لها ، أو تهاونوا فى بيانها للناس ، لعجزت عن الوصول إلى أفكار الناس وأفئدتهم ، فوئدت فى مهدها . كذلك لو لم يتعهدها المؤيدون بالتجديد والتطوير ، لتكاثرت عليها موجات التطور المتلاحقة ، فطوقتها بما يزهق روحها ، ويقضى على آثارها .

فهل يخضع الإسلام باعتباره فكراً ونظاماً للحياة لهذا القانون ؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال بـــ " نعم " أو بـــ " لا " ، لأن عناصر هذا القانون متعددة ، بعضها لا يمكن تطبيقه على الإسلام ، والبعض الآخر يجوز أن يرى المرء ملامح له فى مجال الدعوة الإسلامية ، ولكنها تختلف فى مضمونها وأهدافها عما هو ملاحظ فى النظم الفكرية والمذاهب والأديان البشرية المنتشرة فى المجتمعات الإنسانية . ذلك أنه إذا كان من المسلم به أن كل نظام كان فى مبدئه فكرة ، ثم لما نضجت أصبحت نظرية ، فلا يجوز تطبيق هذا على الإسلام بأى وجه من الوجوه ، لأن مبادئ الإسلام وتشريعاته وحى من الله ، فمن المحال أن نقول : إنه كان فكرة فى عقل الله ثم صاغه فى نظرية ، كما يحدث فى مجال إنتاج العقل البشرى . إذاً فالمرحلتان الأوليان ليستا موجودتين فى الإسلام ، وحل محلهما كون الإسلام وحياً من الله ﷻ ، فابتداء الخيط فى سلسلة الدعوة إلى الإسلام ، الاقتناع بأن مبادئ الإسلام وتشريعاته منزلة من عند الله على رسوله الصادق فيما بلغ عن ربه ، فقد ثبت صدقه ، وتأكدت نبوته ، فما بلغه هو من الله الذى يعلم ما يحتاج إليه البشر ، وما يتناسب مع طبيعة الناس ، ويلبى حاجتهم ، فهو قابل للتطبيق ، لأنه ليس مغرقاً فى الخيال ، ولا متصادماً مع ما تتطلبه الحياة الإنسانية . وعلى المسلمين بيان هذا للناس حتى يقفوا على هذه الجوانب فى العقيدة والشريعة . وأول عمل فى هذا المجال هو " **القدوة الحسنة** " ، لأنها أبلغ من القول فى إقناع الناس فكرياً ، وأشد تأثيراً على عواطفهم وأحاسيسهم ، وأكثر فاعلية فى تطويع جوارحهم لتعاليم الله وتشريعاته .

فكيف تكون القدوة الحسنة ؟ ومن ينبغى الاقتداء به ؟

ذلك ما سوف نفصله ....

رسول وقدوة

إذا كان ثبوت إمكانية تطبيق أى نظرية من النظريات ، يؤثر تأثيراً كبيراً فى مجال إقناع الناس بها ، مما يجعله الدليل الرئيسى الذى يعتمد عليه مروجوها والمدافعون عنها ، فإنه يعتبر المحور الذى تدور عليه فعالية الدعوة فى مجال الأديان ، بل إنه يحتل المكان الأول فى الدعوة الإسلامية ، لكنه لا يعرف فى تعاليم الإسلام ، وأوساط المسلمين بهذا الاسم ، يطلق عليه : **" القدوة الحسنة "**.

فالقدوة الحسنة هى المنارة الأولى التى تنير الطريق لإقناع الناس بصدق من أوحى إليه ، وتوضح لهم بالتطبيق العملى أن تعاليم الإسلام ممكنة التطبيق ، وتؤكد لهم أن ما جاء على لسان رسول الله ﷺ ، وما يردده المسلمون من بعده ، ليس كلاماً نظرياً فحسب ، لا يُرَى مدلوله فى أعمال المسلمين ، ولا شعارات يرفعها أرباب الدعوة ليكسبوا من ورائها غنماً مادياً ، أو جاهاً وسلطاناً أدبياً ، وليس بينهم وبين تطبيقها عملياً فى حياتهم ، إلا كما بين المتضادين ، أو المتنافرين ، لا يجمعهما فى مكان واحد . إنها — أى القدوة الحسنة — الأسلوب البليغ فى مجال الدعوة ، والطريق المثلى فى ساحات تصارع الأفكار وتضاربها ، وتطاحن الدعوات وتدافعها ، للاستيلاء على مشاعر الناس وأفئدتهم .

ويأتى صاحب الدعوة فى مقدمة من ينبغى عليه أن يكون قدوة صالحة ، ومصباحاً وضاءً ، ومنارة هادية للناس على طريق الحق ، حتى تزلل العقبات ، وتزال الحواجز من أمام الناس ليدخلوا فى دين الله . ولهذا عنى الحق تبارك وتعالى بتربية أنبيائه ورسله حتى يصبحوا المثل الصادق لأقوامهم ، ويشتهروا بين مواطنيهم بالأخلاق الحميدة ، والشمائل الكريمة ، والأعمال الصالحة ، والنوايا الحسنة . ويعرف الناس عنهم عزوفهم عن الرذائل ، وبعهدهم عن الشبهات ، وحرصهم على الالتزام بالفضائل ، فهم صادقون فيما يخبرون ، وأمناء على الأموال والأعراض ، فلا يعتدون على مال أحد ، ولا يخوضون فى عرض إنسان ، وهم شجعان لا يعرفون الجبن ، ولا يرضون على أنفسهم التخاذل فى مواطن إقدام الرحال . كانت هذه صفات الأنبياء بين أقوامهم ، وعلى رأسهم خاتمهم محمد ﷺ .

فقد كان الصادق الأمين ، اشتهر بين قومه بكل صفة حميدة ، وما عرف الناس عنه ميلاً إلى رذيلة من الرذائل ، أو تردداً ، أو تخاذلاً عن بذل الجهد والمال لكل من يحتاج إليه . وجاء التعبير عن فضائله فيما قالته له السيدة خديجة رضى الله عنها ، عندما أخبرها بما حدث له فى غار حراء ، عند نزول أول آية من القرآن الكريم ، تطمئنه على أنه لن يمسه سوء : " كلا ، والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ".

كما اشتهر بين قومه بأنه الصادق الأمين ، وذلك لما عرف عنه من الاستقامة وحسن الخلق ، والتعفف عن كل ما يمارسه الشباب من نزوات وشطحات فى عالم اللهو . لقد كان بين أقرانه مثلاً فريداً فى خلقه وتعامله معهم ، وبين أصدقائه وأقربائه نموذجاً يحتذى به كل من يريد الترفع عن الدنايا ، كى ينال قسطاً من احترام المحيطين به ، مما كان له الأثر الكبير فى إيمان كثير منهم بدعوته ، فقد آمنت خديجة لما عرفت عنه من صدق وأمانة وحسن خلق ، وآمن به أبو بكر لأنه عرفه عن قرب ، فاستبعد عليه الكذب على الله ، لأن من لا يكذب على الناس يستحيل أن يكذب على الله . وكذلك الحال مع على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة ، وغيرهما ممن كانوا ملازمين له قبل البعثة ، فمعرفتهم له عن قرب أقنعتهم بأنه لا يمكن أن يكون كاذباً فى دعوته . فتأديب الله لمحمد ﷺ قبل البعثة ، كان له أثر كبير فى نشر الرسالة ، حتى بين المعارضين والمنكرين لرسالته ، إذ أنهم لم يجرءوا على رميه بالكذب فى دعواه ، يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، أى لم يستطيعوا تكذيبه ، لأنه اشتهر بينهم بالصدق ، فرموه بالسحر تارة ، وبالجنون تارة أخرى ، مما يؤكد أهمية امتثال الداعية للمبادئ والتعاليم التى يدعو إليها ، لأنه محور اهتمام من يدعون إلى هذه المبادئ . فلو كان كفار قريش يعلمون جانباً من حياة محمد ﷺ يمكن أن يصلوا من خلاله إلى اتهامه بالكذب لفعلوا . فكانت سيرته قبل البعثة عاملاً مؤثراً فى مجال دعوته إلى الله ، وتلك من لوازم القدوة الحسنة التى يتحتم وجودها لنجاح أى دعوة فى المجتمع الإنسانى .

obeikandi.com

كان الرسول ﷺ المثل الأعلى للاقتداء ، والنموذج الأمثل للسير على منواله ، فعمله كان تطبيقاً لدعوته ، كما كانت سيرته نبراساً يحتذى بها المسلمون فى حياتهم ، ومنارة يهتدى بها الحائرون فى مشاكلهم ، يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، كذلك كانت أقواله المدعمة بأفعاله أدلة دامغة للمعاندين والمكابرين ، وتنبيهاً وإيقاظاً للغافلين والحيارى فى طريق اختلطت فيه الأفكار والاتجاهات ، وتشابكت فيه أصوات الحق مع صرخات الباطل ، إذ أن طريقة حياته فى بيئته ، وتعامله مع من حوله ، وعلاقته بالمغريات المحيطة به ، وأسلوب معاملته مع الأنصار والأعداء ، لدليل واضح ، وحجة دامغة ، وبيان صريح على أنه رسول من عند الله ، لأن ما يتحلى به لا يكون إلا أخلاق نبى ، وصفات من أرسلهم الله ، بعد أن هيأهم لهذه المهمة العظيمة ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم : ٤] ، ويقول هو عن نفسه : " **أدبنى ربى فأحسن تاديبى** ".

إذا كان من المسلم به أن لأخلاق صاحب الدعوة — حتى ولو كانت لا صلة له بالأديان — تأثيراً كبيراً فى انتشارها إيجاباً وسلباً ، فإن سيرة محمد ﷺ تكاد تكون محور هذا الانتشار ؛ فقد كانت بعيدة الأثر فى إقناع معاصريه بالإسلام ، كما تُعَدّ أحد ركنى الدعوة إلى الإسلام فى كل عصر وزمان ، فإذا كان القرآن الكريم هو سلاح الداعية الأول ، فإن سيرة رسول الله ﷺ سلاحه الثانى ، يستخرج منها من الأمثال ما يقنع المدعوين ، ومن الأحداث ما يرقق قلوبهم ، ويهذب مشاعرهم ، ويؤثر فى أحاسيسهم بحيث ينقادون لتعاليم الإسلام ، فينفذون أمر الله عن رضا واقتناع .

فلو تتبعنا سيرته ﷺ لاستخرجنا كثيراً من الصفات التى ينبغى على الداعية أن يتحلى بها لينجح فى رسالته ، لكن المقام يقتضينا أن نذكر أهم ما جاء فى سيرته مما يكون له بالغ الأثر فى مجال الدعوة ، لو اقتدى به الدعاة فى ذلك :

الصبر

إن من أهم ما ينبغى على الداعية أن يقتدى فيه برسول الله ﷺ ماكان يتحلى به ﷺ من الصبر ، لأن لذلك أثراً كبيراً فى مجال نشر الدعوة . لقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الصبر ، امتثالاً لأمر الله له ، إذ وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحثه على الصبر على أذى قريش ، يقول تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل : ١٠] ، ويقول : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام : ٣٤ – ٣٥]. فمنذ بدء الدعوة إلى الرسالة كان الصبر مطلوباً من الله لرسوله الكريم ، ومأموراً به إياه ، لأنه عامل رئيسى فى النجاح وفى دفع الهزيمة ، ولكى يؤكد القرآن أهمية الصبر فى النجاح يأتى قوله مخاطباً المؤمنين : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال : ٦٥] ، فصفة الصبر لا تجعل العدد القليل عند اللقاء والمواجهة يساوى فى القوة العدد الكثير فحسب ، بل يتفوق عليه ، ولذا يكون النصر للجانب الذى صبر مع قلة عدده ، ضد الجانب الآخر مع كثرته العددية .

إن القوة المعنوية هى أشد فعالية من القوة المادية ، لأنها فى حقيقة الأمر هى قوة الإنسان ، والقوة الإنسانية هى دائماً قوة نافذة ومستمرة لغيرها . وفى كل ما ينصح به الإسلام فى سبيل القوة يركز على القوة المعنوية والإنسانية بالدرجة الأولى ، يقول تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة : ١٥٣ - ١٥٦] ، فهو ينصح بالصبر والصلاة فى القتال فى مواجهة الأعداء ، وينصح بالصبر والصلاة فى مواجهة أزمات الحياة ، والشدة التى تطرأ بسبب الخوف ، والجوع ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ... ثم يعد بالنصر فى القتال ، وباجتياز الأزمات والشدائد فى سلام لأولئك الصابرين ، ويخص الصبر بالذكر هنا ، لا لأن أهميته تفوق أهمية الصلاة فى النجاح ، ولكن ليؤكد فقط أهمية الصبر ودوره فى الإنقاذ والنجاة ، ثم للاستمرار فى الحياة .

أمر الله رسوله ﷺ بالصبر على ما يلاقى فى سبيل الدعوة ، فامتثل لأمر الله ، واستمر فى دعوته ، غير عابئ بعناد المناوئين ، ولا متأثر بإصرارهم على الباطل ، فكان ثباته على الحق مثلاً أعلى لكل من يسير على هداه فى دعوة الناس إلى الحق . وأى مثل أعلى من تصرفه ، حين عرضوا عليه من الإغراءات المادية ، والعروض الدنيوية ، ما يسيل له لعاب أى إنسان ، ويسقط تحت بريقه أكثر الناس تمسكاً بالمبادئ ، وأعلاهم صوتاً بالدعوة إلى الإصلاح . لقد ثبت محمد ﷺ أمام عروض قريش المغرية ، وأعلنها صريحة مدوية أنه لا يرضى بدعوة الحق بديلاً ، فقد حدث أن قريشاً أرسلت وفداً من علية القوم — وعلى رأسهم أبو سفيان — إلى أبى طالب ، وقالوا له : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه ، من دين

وعقيدة . فقال لهم أبو طالب قولاً بليغاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، لكنهم عندما رأوا أنه لم يفعل شيئاً مشوا إليه مرة أخرى ، فقالوا : يا أبا طالب ! إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد رجوناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، فإنا والله لا نصبر أكثر مما صبرنا على شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الطرفين . عظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بأن يسلم رسول الله ﷺ لهم ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخى ! إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

وظن رسول الله ﷺ أن أبا طالب قد اضطرب فى أمره ، وضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : " **يا عم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته** ". واستعبر رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام . فلما ولى ناداه أبو طالب ، فقال له : أقبل يا ابن أخى ، فأقبل رسول الله ﷺ ، فقال له :إذهب يا ابن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً .

كذلك كررت قريش محاولتها مع النبى ﷺ لصرفه عن دعوته ، فعندما رأت أن أصحابه يزيدون ويكثرون ، استأذن عتبة بن ربيعة قريشاً – وفى رواية أنهم هم الذين كلفوه – أن يأتى رسول الله ﷺ فيكلمه ويعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فيعطونها له ، ويكف عنهم ، فأذنت قريش له واستخلفته . وجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه ، وقال : يا ابن أخى ! إنك فينا حيث قد علمت ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به من جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى ، أعرض عليك أموراً ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله ﷺ " **قل يا أبا الوليد ، أسمع** " ، قال : يا ابن أخى ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً ، سودناك علينا ، وإن كان الذى يأتيك رئياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا له أطباء ، وبذلنا من أموالنا حتى نبرئك منه .

فلما فرغ عتبة ، قال رسول الله ﷺ : " **أو قد فرغت يا أبا الوليد ؟** " قال : نعم ، قال : " **فاسمع منى** " ، قال : افعل ! ، فقرأ رسول الله ﷺ آيات من سورة " فصلت " إلى السجدة ، فلما سمع منه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها ، يسمع منه ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، سجد ، ثم قال : " **قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك** ".

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله قد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : ورائى أنى سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ! أطيعونى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه . فاعتزلوه ، وقالوا : سحرك ، والله ، يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

هذه أمثلة واضحة تدعو الدعاة إلى الصبر ، اقتداءً برسول الله ﷺ ، فلا ييأسوا من قسوة الناس وأذاهم ، ولا يضعفوا أمام المغريات المادية ، أو يحيدوا عن طريق الدعوة فى مقابل مكاسب أدبية ، بل عليهم أن يصبروا فى دعوتهم ، ويقاوموا ما يعترض طريقهم من عقبات ومعوقات ، اقتداءً برسول الله ﷺ ، فذلك هو الأسلوب الأمثل لنجاح الدعوة فى المجتمع .

ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى فى سبيل الدعوة إلى الله ، فكما صبر فى مكة على أذى قريش ، ومعارضتها له ، كذلك صبر فى المدينة على مؤامرات المنافقين ، سواء كان ذلك فى مجال تشكيك المسلمين فى دينهم ، أو فى مجال ترويج الشائعات لإحداث فتنة ، أو إلحاق ضرر بسمعة المؤمنين والمؤمنات ، ذلك أن ما ابتلى به النبى ﷺ فى المدينة هو : النفاق والمنافقون من جانب ، وترويج الشائعات الضارة من جانب آخر . وقد قابل النبى هذه الظواهر المرضية بالصبر والحكمة ، ضارباً المثل الأعلى لمن يأتى بعده من الدعاة ، كى يكون سلوكه نبراساً لهم فى مجال نشاطهم ، ومنارة تهديهم إلى الأسلوب الأمثل فى مواجهة مثل هذه العقبات .

تعرض النبى ﷺ لأذى المنافقين فى المدينة ، ومن أشهر ما روى فى هذا الصدد ما فعله عبد الله بن أبى بن سلول ، ويُعْرَف فى تاريخ الإسلام بـــ " كبير المنافقين " ، والذى دفعه

إلى هذا الموقف رواسب أحداث وقعت قبل هجرة المسلمين إلى المدينة ؛ ذلك أنه كان رجلاً ذا منزلة كبيرة بين قومه ، فأجمع الناس على تنصيبه عليهم أميراً ، وقبل أن يُنَصَّب رسمياً آمن أهل المدينة بالإسلام ، وكانت هجرة الرسول ﷺ إليها ، فتنوسي هذا الأمر .

ولهذا كان يغار كثيراً من الرسول ، ويحمل فى قلبه حقداً دفيناً ضده ، وقد وضح هذا الموقف فى حادثتين :

الأولى : حادثة الفتنة الخطيرة التى أراد بها التفريق بين المهاجرين والأنصار حتى لا يجد المهاجرون لهم مفراً من الخروج بأنفسهم وأهليهم . وتفصيل ذلك أن جهجاه بن سعيد الغفارى — وكان أجيراً لعمر بن الخطاب — اقتتل على الماء مع أنصارى — وهو سنان بن يزيد — فنادى سنان : يا معشر الأنصار ! ونادى جهجاه : يا معشر المهاجرين . وكادت الفتنة أن تشتعل ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وقال لهم : " **ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها فتنة** ". لكن نفاق عبد الله بن سلول دفعه إلى استغلال هذه الفرصة ليفرق بين المهاجرين والأنصار ، فقال لجماعة من قومه — وكان فيهم زيد بن الأرقم — : قد ثاورونا فى بلادنا ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه ، وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتم عنهم ، لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها .

فلما سمع ذلك زيد بن الأرقم ، ذهب إلى النبى ﷺ وأخبره بما قال عبد الله بن أبى ، فقال عمر بن الخطاب — وكان جالساً معه فى ذلك الوقت — : يارسول الله! مر عباد بن بشر فليضرب عنقه ، فقال رسول الله : " **فكيف إذا تحدث الناس ياعمر أنى أقتل أصحابى ، ولكن ناد يا عمر : " الرحيل "** .

رحل رسول الله ﷺ فى وقت ، لم يعتد أن يرحل فيها لشدة الحر ، فلقيه أسيد بن الحضير ، فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال : والله ، لقد رحلت فى ساعة مبكرة ، ما كنت ترحل فيها . فقال رسول الله ﷺ : " **أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبى ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل** ". قال : فأنت يارسول الله العزيز وهو الذليل ، ثم قال : إرفق به يارسول الله ! فو الله لقد جاء الله بك ، وإنا لننظم الخرز لنُتَوِّجَه ، فإنه ليرى

أن سلبته ملكاً . سار النبى ﷺ بالناس نهاره ، حتى أمسوا ، وليلته حتى أصبحوا ، وصدر يومه حتى اشتد الضحى ، ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمنوا أن وجدوا مس الأرض فناموا .

ويروى زيد بن الأرقم أن الرسول ﷺ أرسل إلى عبد الله بن أبى ليسأله عما صدر منه ، فجاء هو وأصحابه ، وحلفوا بالله ما قالوا ، فكذبنى رسول الله وصدقه ، فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط ، وجلست فى البيت ، حتى أنزل الله سورة المنافقين ، فبعث إلىّ رسول الله فقرأها علىّ ، ثم قال : **" إن الله قد صدقك ".**

كما يروى الرواة أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه من أمر أبيه ، أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله ، لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، إنى خشيت أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأكون بذلك قد قتلت مؤمناً بكافر فأدخل النار . فقال له رسول الله ﷺ : **" بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا ".**

فقد ضرب رسول الله ﷺ بذلك المثل الأعلى فى السيطرة على القوم ، وقتل بذور الفتنة قبل أن يستفحل شرها ، وذلك بالأمر بالرحيل ، كما كانت معالجته للموضوع برمته — سواء ما تعلق بمروجى الفتنة ، أو ما اتصل بأطرافها : زيد بن الأرقم ، وعبدا الله بن أبى (المنافق) ، وابنه عبد الله — على جانب كبير من السياسة والحكمة التى يجب على الدعاة أن يترسموا خطاها ، ويسيروا على منهاجها ، فقد رفض رأى عمر ، لما له من آثار سيئة على مسيرة الدعوة ، ومال إلى تصديق عبد الله بن أُبىّ ، عندما أنكر أنه قال ما نقله زيد بن الأرقم إليه ، حتى يقضى على ما خلفته تلك المقالة من آثار سلبية على تماسك المجتمع الإسلامى ، ورفض عرض عبد الله بن عبد الله بن أُبىّ بقتل أبيه بيده ، لأنه ، وإن كان عرضاً صادقاً منه ، إلا أنه — لو حدث — كان سيسبب آلاماً لمؤمن صادق فى إيمانه ، ومخلص لدينه ولرسوله ، فمن الأولى أن يحافظ الرسول على شعوره ، حتى وإن كان فى ذلك تنازل عن حقوق يقرها الشرع ، وتؤيدها سنة الحياة . ولقد جمع رده على عبد الله بن

عبد الله بن أُبَىّ حكمة الأنبياء مع أسلوب الرحماء فى سياسة الأمم والشعوب : **- بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا -.**

الحكمة فى مواجهة الأزمات

تمر الأمم والمجتمعات بأزمات تتفاوت فى حدتها وتأثيرها على حياة الناس ، كما تختلف ردود الفعل التى تحدثها ، باختلاف من تتعلق به فى سلم الوضع الاجتماعى ، أو المركز الدينى ؛ إذ كلما ارتبطت الأحداث بشخصيات بارزة فى المجتمع ، كان صداها أوسع ، وآثارها أعمق فى نفوس الناس ، ويبلغ الصدى مداه ، إذا كان الحدث متعلقاً بالشخصية التى تحلقت حولها الأمة ، واتخذتها مركزاً لحياتها ، ومنبعاً لمقومات شخصيتها ، بل إن الأثر يكون عميقاً عمقاً لا يصل التصور الذهنى إلى قرارد ، إذا تعلق الحدث بالمبادئ التى قامت عليها شخصية المجتمع وهويته . ولذلك نرى أن سيرة الزعماء والمصلحين هى مرآة الأمة ، ومحور اهتمامها ، فإذا لُوِّثَت أصيب الناس بخيبة أمل ، قد تقودهم إلى الكفر بالمبادئ التى نادى بها هؤلاء المصلحون ، ودعا إليها الزعماء ، فما بالك إذا استهدف الحدث نبياً من الأنبياء ، وكان مضمونه يتعلق بشيء ركزت دعوته عليه تركيزاً كبيراً ، واهتمت به اهتماماً بالغاً ، إذ من الممكن أن تُقَوَّض الدعوة بمثل هذه الأحداث ، أو على الأقل تصاب بداء عضال لا تشفى منه أبداً ، حيث يكون نقطة سوداء فى جبين المبادئ الوضاء ، وغشاوة أمام أعين كثير من الناس تحول بينهم وبين الإيمان بهذه المبادئ .

ومن هذه الأحداث التى بلغت فى خطورتها مبلغاً كبيراً : حديث الإفك — وهو الحدث الثانى الذى قابله النبى ﷺ فى المدينة بعد حادث عبد الله بن أُبَىّ بن سلول – ، الذى افتراه المنافقون وروجوه فى المجتمع ، ظناً منهم أنهم سينالون من الإسلام بهذا العمل ، إذ اعتقدوا أن لصوق مثل هذه التهمة بأقرب الناس إلى صاحب الدعوة من شأنه أن يهز الإيمان فى قلوب المسلمين . لكن الرسول ﷺ قابل هذه الشائعة بصبر وحكمة ، وتعامل معها بأسلوب الأنبياء ، فكان ذلك مثلاً للمسلمين من بعده ليسيروا فى مثل هذه الأحداث على سيرته ، ويتبعوا سنته حتى لا يستفحل الأمر ، فيعجز المصلحون عن معالجة آثاره السيئة .

وبيان ذلك ما روى عن عائشة أنها قالت : " **كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت : عائشة رضى الله عنها : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها ، فخرج سهمى ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمَل فى هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فمشيت حتى جاورت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاوه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى ، فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه . قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ، ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفتقدوننى فيرجعون إلىّ ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ، ثم الذكوانى ، قد عرس من وراء الجيش فأدلج ، فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى ، فعرفنى حين رآنى ، وقد كان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ، فوطئ على يديها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة ، فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره : عبد الله بن أبىّ بن سلول .**

تحدث الناس بحديث الإفك ، إذ نشط المنافقون فى إذاعته بين الناس وجدوا فى تصوير الأمر ، وكأنه حقيقة مؤكدة . كل ذلك وعائشة لا تعلم شيئاً عن هذه الإشاعة التى ملأت المدينة ، إلى أن قادتها الظروف إلى حديث بينها وبين رفيقة لها حين عودتها من قضاء الحاجة ليلاً ، فعرفت منها أن الناس يتحدثون بحديث الإفك ، تقول عائشة : فازددت مرضاً إلى مرضى — إذ كانت تمر بأزمة صحية فى ذلك الوقت — ، فلما رجعت إلى بيتى ، دخل علىّ رسول الله ﷺ ، ثم قال : " **كيف تيكم ؟** " ، فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى ،

فقلت لأمى : يا أمتاه! لماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أى بنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقلت : سبحان الله ، وقد تحدث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى .

قالت " فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد ، حين استلبث الوحى ، يسألهما ، ويستشيرهما فى فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من ود ، فقال أسامة : يارسول الله! أهلك ، ولا نعلم إلا خيراً . وأما على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله! لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر .

اشتدت وطأة المحنة على عائشة رضى الله عنها ، خاصة أن رسول الله ﷺ استشار بعض أصحابه فى شأنها ، وسأل عنها المحيطين بها . ومكثت فى بيت أبيها حتى جاءها رسول الله ﷺ يوماً وقال لها : " **يا عائشة ! فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب ، تاب الله عليه** ". فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ! فقال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ! فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت – وأنا جارية حديثة السن ، لا أقرأ كثيراً من القرآن – : لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إنى بريئة – والله يعلم أنى بريئة – لا تصدقوننى ، ولئن اعترفت بأمر – والله يعلم أنى منه بريئة – لَتُصَدِّقُنِّى ، فو الله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف :١٨] . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة ، وإن الله تعالى مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها .. قالت : فو الله ما رام

رسول الله ﷺ بمجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه قوله تعالى :

﴿ إن الذين جاءو بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل
امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴿١١﴾ لولا
إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنت بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴿١٢﴾ لولا
جاءو عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكذبون
﴿١٣﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه
عذاب عظيم ﴿١٤﴾ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم
وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴿١٥﴾ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن
نتكلم بهذا سبحنك هذا بهتن عظيم ﴿١٦﴾ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن
كنتم مؤمنين ﴿١٧﴾ ويبين الله لكم الآيت والله عليم حكيم ﴿١٨﴾ إن الذين
يحبون أن تشيع الفحشة فى الذين ءامنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله
يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿١٩﴾ ﴾ [النور : ١١ -١٩]

ينبغى أن يكون أسلوب الرسول ﷺ فى معالجة هذا الحدث نبراساً للدعاة ، ومنارة للمصلحين ، وطريقاً لولاة الأمور ليسيروا على منهجه فى معالجة ما يجد فى مجتمعاتهم من أحداث ، إذ أن هذا الحدث بلغ من الخطورة درجة كانت كفيلة بهدم الإسلام فى مهده ، وهدم الرسول ﷺ فى أول طريق دعوته ، لكن حكمته ومعالجته الهادئة للأمور حالت دون مضاعفة الآثار التى كان يمكن أن تعصف بالمجتمع الإسلامى فى قاع التمزق والانهيار ، فقاد السفينة وسط الأمواج المتلاطمة ، وبين العواصف الهوجاء ، حتى نزل الوحى بتبرئة عائشة رضى الله عنها ، فقضى على الفتنة قضاء مبرماً .

ألا فليتخذ الدعاة و المصلحون ، وولاة الأمر هدى الرسول ﷺ وسيرته طريقاً لهم ، كي يؤدوا ما عليهم بالأسلوب الأمثل ، ففى ذلك ضمان للوصول إلى الهدف ، ألا وهو بناء مجتمع صالح يقوى على مواجهة الأعداء ، ويصمد للعواصف الهوجاء ، أياً كان مصدرها ، وعلى أى كيفية كانت طبيعتها وهيئتها .

الرأفة

يجدر بنا بعد الحديث عن المواقف الصعبة التى قابلها الرسول ﷺ أن نتناول بعضاً من صفاته ﷺ ، ليكون الدعاة على بينة منها – أو لتكون تذكرة لهم – فيجعلوها نصب أعينهم ، فإن فى ذلك دعماً لدعوتهم ، وتقوية لمسيرتهم ، وتسهيلاً لبلوغ هدفهم ، فإنهم ، إن اتخذوا صفات رسول الله ﷺ دستوراً لهم ، ومنارة لخطواتهم ، فسوف يقتنع الناس بكلامهم ، ويثقون فيهم ، وذلك هو أقصى درجات الدعوة ، وأبلغ أثراً فى نفوس الناس .

كان رسول الله ﷺ شديد الرأفة بالمسلمين ، كثير المراعاة لاختلاف أحوالهم ، وما يعترى النفوس من فتور وملل ، يقول ابن مسعود ﷺ : كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا ، وكان مع شدة ولعه بالصلاة يتجوزها ، إذا سمع بكاء الصبى . فقد روى عنه أنه قال : **" إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز فى صلاتى ، كراهة أن أشق على أمه ".**

فإذا أراد الداعية أن يتأسى فى ذلك بالرسول ﷺ - بل يجب عليه ذلك – فعليه أن يراعى ظروف الحال ، وطبيعة الموقف ، ويتبين الملابسات ، فلا يلقى موعظة حيث لا محل لها ، ولا يتفوه بكلمات إلا إذا كان متأكداً أن القوم على استعداد ليسمعوا له ، وإلا فسوف يكون أداة تنفير ، وصوتاً يبعث عـى كراهية الوعظ ، وسماع الوعاظ ، بل ويبعث على الاستهزاء به ، إن لم يكن بالقول المسموع ، فسيكون بالهمس الممقوت . ولا يحسبن أن كثرة الكلام ، وفصاحة اللسان هما المعول عليهما فقط فى عمل الواعظ ، بل لابد أن يضاف إليهما حسن اختيار وقت الكلام ومكانه ، وتقدير ظروف الناس ، ومعرفة أحوالهم ، حتى يكون لكلامه أثر طيب ، ولحجته آذان صاغية . كذلك لا ينبغى أن يطيل فى

الموعظة ، حتى لا يسأم الناس فينصرفوا عنه ، ولا يبالغ فى تأدية العبادات ، لأن فى المبالغة حرجاً لبعض الناس ، فعن ابن مسعود أن رجلاً قال : والله يارسول الله ! إنى لأتأخر عن صلاة الغد من أجل فلان مما يطيل بنا ، فما رأيت رسول الله ﷺ أشد غضباً منه يومئذ ، ثم قال : " **إن منكم منفرين ، فأيكم صلى بالناس فليتجوز ، فإن فيهم الضعيف ، والكبير ، وذا الحاجة** ".

فمن يطيل الصلاة — وهو يؤم الناس — منفر ، ومن يسهب فى إلقاء الموعظة بدون داعٍ منفر ، ومن يقحم نفسه بالحديث عن الإسلام فى موقف غير ملائم ، لا يجنى من وراء ذلك إلا السخرية والاستهزاء ، وبالتالى فعمله لا أثر له ، بل له من الآثار السلبية مالا يستطيع محوه إلا بشق الأنفس . فالدين يسر ، وينبغى أن تكون الدعوة إليه بأسلوب لا تنطع فيه ، ولا تكلف ، بل إن القيام بواجباته وفروضه لا تكون مقبولة إلا إذا كانت فى إطار سهل ، ميسر لكل الناس ، فقد روى عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " **إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة** ". وقال : " **مه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله ما يمل الله حتى تملوا** ". وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سئل النبى ﷺ : أى الأديان أحب إلى الله ؟ قال : " **الحنيفية السمحاء** ".

وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال النبى ﷺ : " **هلك المتنطعون** " ، أى المتشددون ، وقال لبعض من بعثهم للدعوة والتعليم : " **يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا** ".

فالقدوة برسول الله ﷺ تحتم على الداعية أن يتخير موعظة الناس زماناً ومكاناً ، وألا يطيل فى موعظة إلا إذا اقتضت الظروف ، وألا ينفر الناس بكثرة الوعيد ، بل عليه بالتبشير ، ولا يتطرق إلى وعيد الله إلا عند الحاجة القصوى . وإن أمَّ الناس فليخفف عنهم ، وليكن بالنسبة للناس كما كان رسول الله ﷺ : أوسعهم صدراً ، وأكرمهم عشيرة ، وألينهم جانباً ، لا ينعزل عنهم ، بل يخالطهم ويحادثهم ، ويجيب دعوة الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، ويعود المرضى ، ويحنو على الضعفاء . ومن لم يستطع ذلك فلا يقحم نفسه فى مجال الوعظ ، كى لا يتسبب فى إحداث ما يعوق مسيرة الدعوة فى المجتمع الإنسانى .

الحلم

تتطلب قيادة المجتمع أن يتحلى القائد بصفات يكون لها الأثر الفعال فى التفاف الناس حوله ، وتعلقهم به ، وامتثالهم لأوامره ، واجتنابهم نواهيه . ومن هذه الصفات : **الحلم** ، إذ يجب أن يكون القائد حليماً ، لأن لين الكلام هو مفتاح القلوب ، والدواء الناجع لأمراض النفوس ، إذ لا ينفر الناس من الحليم ، ولا تشمئز نفوسهم ممن يحنو عليهم ، ويرعاهم رعاية الأب لأبنائه . ولما كان الدعاة فى مركز أكثر حساسية من مركز القائد والزعيم ، فيجب عليهم أن يعالجوا أمراض النفوس بأسلوب هادئ ، وألفاظ حانية ، فلا يستفزوهم بالغضب ، ولا يستثيروهم بالحمق ، حتى لا تنفر منهم قلوب الناس ، أو تشمئز نفوسهم من خشونة القول ، وغلظة السلوك . وليكن قدوتهم فى هذا معلمهم الأول محمد ﷺ ، فهو إمام الخلق أجمعين ، ومعلمهم فى حسن الخلق ، وكرم النفس ، والتواضع ، وقد سجل الله ذلك فى كتابه الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم : ٤] ، كما بين رسول الله ﷺ هذا الجانب فيما روى عنه أنه قال : " **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** ".

فحسن خلق الداعية مع من يدعوهم – بأن يحنو عليهم ، فيعظهم بالقول الحسن ، ويتغاضى عن إساءتهم فى حقه ، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ، دون غلظة أو تعنت – أساس النجاح فى دعوته ، ومبعث التفافهم حوله ، وتآزرهم معه على طريق الدعوة إلى الله ، وليتذكر دائماً قول الله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . إذ أن سوء خلق الداعية ، وقسوة قلبه على من حوله ، وغلظته فى معاملتهم ، وخشونة أسلوبه فى وعظهم ، تنفر الناس منه ، فيتفرقون عنه ، وينصرفون من حوله ، وبذلك يحرمون من الهداية ، فيعيشون فى جهالة جهلاء ، وعماية ظلماء بسبب السلوك السيئ للداعية .

وحسب الداعية تذكيراً بهذا الجانب ما روى فى سيرة سيد الدعاة محمد ﷺ ، فقد ثبت أنه كان مضرب الأمثال فى رحابة الصدر ، وقوة الاحتمال ، بل إن ما نقرأ عنه فى هذا الصدد يفوق كل خيال ، ولو لم يرو بطريق صحيح لتطرق الشك إلى إمكان وقوع مثل هذا لنوع من السلوك ، لأنه فاق كل مقاييس الِحلم المتعارف عليها فى المجتمعات البشرية ، فقد عفا عن ألد أعدائه ، إذ يروى أنه أتى عبد الله بن أُبَىّ بن سلول — رأس المنافقين — بعدما أُدْخِل حفرته ، فأمر به رسول الله ﷺ فأُخْرِج ، فوضعه على ركبته ، ونفث فيه من ريقه ، وألبسه قميصه .

كما كان يعفو ويصفح عمن تدفعه خشونة البداوة إلى تصرف غير سليم ، إذ كان يفهم الدوافع ، ويقدر ما عليه المرء ، فيتنازل عن الإساءة التى تلحق بشخصه ، فعن أنس بن مالك ﷺ قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى ، غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى ، فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إل صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد ! مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء .

كان حلمه ﷺ مضرب الأمثال ، فهو منارة يهتدى بها الدعاة ، وسلوك يتأسى به المؤمنون ، وحجة لإقناع غير المسلمين بصحة دعوته ، لحملهم على الاعتقاد بأن ما جاء به هو وحى الله الذى أُنْزِل عليه ، وأُمِرَ بتبليغه ، فكان معلماً رفيقاً بالناس فى بيان ما أمره الله ببيانه للناس ، ومصلحاً رحيماً بمن يدعوهم إلى طريق الحق ، فلم يؤنب أحداً أخطأ عن جهل ، ولم يغلظ القول لإنسان جانبه الصواب لعدم سابق معرفة ، فعن أبى هريرة ﷺ قال : بال أعرابى فى المسجد ، فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال النبى ﷺ : **" دعوه ، وأريقوا على بوله سجلاً من الماء ، أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين "**.

هذه بعض صور من سلوكه ﷺ مع اعدائه ، ومع أصحابه ، وفى معرض تعليم وتوجيه من أخطأ عن جهل . فيجب على الدعاة أن يتأسوا به ، لأنهم نوابه فى الدعوة إلى الله ، فإذا لم يسيروا على خطاه ، ضاعت الأمانة ، وتبددت معالم الرسالة ، فذهب علمهم هباءً منثوراً ،

وحقت عليهم كلمة الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢ - ٣]

العفو

من الصفات التى يجب على الداعية أن يتحلى : العفو ، إذ هى صفة ممدوحة ، ومن شأن الداعية أن يتحلى بكل ما هو ممدوح ، لأنه يدعو الناس إلى التحلى بكل ماهو حسن . ولا يكون العفو ممدوحاً إلا إذا كان عن قدرة على مواجهة من يعفو عنه ، يقول تعالى :

﴿ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩ ﴾ [النساء : ١٤٩]

فقد وصف الله نفسه بالقدرة بعد العفو ، ليبين أن العفو لا يعد فضيلة إلا إذا كان الذى يعفو قادراً على مواجهة آثار عدم العفو ، وما ذاك إلا ليبين للناس أن العفو عن ضعف لا يثاب المرء عليه ، لأنه مضطر إليه ، ولا فضيلة لعمل يضطر إليه الإنسان . أما إذا كان قادراً على عدم العفو ، ثم عفا ، فإن ذلك يكون نابعاً من طبيعة خيرة فى ذاته .

وفى سيرة رسول الله ﷺ أمثلة كثيرة للعفو ، فقد عفا ﷺ عمن أنكروا دعوته وآذوه ، وعذبوا المسلمين ، ونكلوا بهم فى مكة . ومن أنصع هذه الأمثلة وأكثرها وضوحاً وبياناً لأصالة صفة العفو عند رسول الله ﷺ ما جرى بينه وبين أهل مكة ، بعد أن فتحها الله له ، إذ كان فى استطاعته أن يبيح المدينة لجنوده كما تفعل الجيوش المنتصرة ، ليس فقط فى العصور الوسطى ، حيث يلتمس المحللون العذر لمن يفعل ذلك بقسوة القلوب فى تلك العصور المتخلفة ، بل وفى العصر الحديث ، بل وفى القرن العشرين ، فقد أبيحت المدن الألمانية لجيوش الحلفاء ، فنهبوا ثرواتها ، واغتصبوا نساءها ، وعاثوا فيها فساداً .

لم يقتص ﷺ من المجرمين – الذين أجرموا فى حقه ، فآذوه أثناء وجوده فى مكة قبل الهجرة ، وعذبوا من آمن به وسلبوا أموالهم ، فدفعوهم إلى الهجرة إلى المدينة ، دون أن يأخذوا شيئاً مما ملكوه – ، فلم ينصب لهم محاكم على غرار محاكم التفتيش فى القرون

obeikandi.com

الوسطى ، أو على غرار محكمة " نورنبرج " التى اقتصت من قادة الجيش وزعماء الحكم فى ألمانيا ، فى أربعينات القرن العشرين ، بل قال لهم قولته المشهورة : " **إذهبوا فأنتم الطلقاء** " . عفو عام لم يذكر التاريخ مثله على الإطلاق ، فلو بحث الإنسان فى سجلات تاريخ الحروب بين الأمم ، فلن يجد عفواً مثل هذا ، ولا سلوكاً يقاربه من أى قائد من قواد الحروب التى وقعت فى تاريخ البشرية .

فإذا علل المرجفون هذا السلوك بأنه ضرورة اقتضتها ظروف الدولة الحديثة ، أو بأنهم أهله وذووا رحمه ، فلابد أن يعفو عنهم ، فعليهم أن يتصفحوا سيرته ﷺ ، فسوف يجدون صوراً للعفو ليس فيها هذه المبررات ، فعن جابر رضي الله عنه قال غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد ، فأدركته القافلة ، وهو فى وادٍ كثير العضاة ، فنزل تحت شجرة ، واستظل بها ، وعلق سيفه ، فتفرق الناس فى الشجر يستظلون ، وبينما نحن كذلك ، إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا ، فإذا أعرابى قاعد بين يديه ، فقال : " **إن هذا أتانى وأنا نائم ، فاخترط سيفى ، فاستيقظت وهو قائم على رأسى مخترطاً صلتاً ، قال : من يمنعك منى ؟ فقلت : الله . فشامه** (أى رده إلى غمده) ، **ثم قعد فهو هذا** " . ولم يعاقبه رسول الله ﷺ

فهذا مثال للعفو لا يوجد فيه تبرير المرجفين ، إذ ليس هذا الحدث عاماً حتى يقال: " **عفا دعاية** " ، وليس هو من أقربائه ، بل أعرابى أراد قتله ﷺ ، ومع ذلك عفا عنه ، وما ذاك إلا ليُعَلِّم من بعده من دعة وعامة المسلمين ، بأن العفو عند المقدرة فضيلة دعا إليها الإسلام ، حتى ولو كانت الإساءة المطلوب العفو عنها تتعلق بدم أو عرض ، فقد أمر الله ﷻ بالعفو عمن اشترك فى إشاعة حديث الإفك ، إذ يروى أن أبا بكر رضي الله عنه أراد منع العطاء لنفر من هؤلاء الذين لاكت ألسنتهم أخبار الإفك ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

[النور : ٢٢]

فالقرآن الكريم ينصح المسلمين بالعفو ، وسيرة الرسول ﷺ تدعو إليه ، فيجب على الدعاة أن يتحلوا بهذه الصفة ، لأنهم المرآة التى يرى الناس فيها تعاليم الإسلام حية ، فهم القدوة ، وهم النموذج الذى يقلده المسلمون ، فلو بلى ، أو فسد ضاعت معالم الطريق ، فضل الناس وتخبطوا فى ظلمات ، هيهات أن يخرجوا منها ، لأن فساد الداعية داء عضال ، إذا فشا فى الأمة ، قادها إلى التحلل والانهيار .

الشجاعة

يجب على الداعية أن يكون شجاعاً ، لا يهاب أحداً فى الجهر بالحق ، ولا يخش شيئاً فى إسماع الناس ما أمر الله بتبليغه ، فلا تأخذه فى نشر الدعوة لومة لائم ، وذلك اقتداءً برسول الله ﷺ ، فلم يهب صناديد قريش ، ولم يخف بأسهم ، ولم يلق بالاً لجبروتهم وبطشهم ، بل صدع بالأمر فبلغ الرسالة وصبر ، وصابر على أذاهم ؛ إذ تذكر لنا صفحات سيرته ﷺ أنه ضرب المثل الأعلى فى الشجاعة ومواجهة المواقف الصعبة ، فقد روى أن عمر بن الخطاب - وكان شديد البطش بالمسلمين قبل إسلامه – ذهب إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم بعد أن قرأ الصحيفة عند أخته فاطمة ، فلما طرق الباب وعرف المسلمون أنه عمر ، ارتعدوا ، وخافوا من بطشه ، لكن الرسول ﷺ فتح له الباب ، ثم أخذ بجلبابه فجبذه ، وقال له : " **أما آن لك يا ابن الخطاب أن تسلم !** " . فقد أثبت ﷺ للمسلمين فى هذا الموقف أنه أشجع الشجعان ، إذ لم يخف من عمر : وقد كان معروفاً فى مكة ببأسه وجبروته . وكذلك لم يخش رسول الله ﷺ أحداً فى مكة ، فاستمر فى دعوته ، وفى الجهر بأمر الله ، دون أن يلتفت إلى كيد كفار قريش ومؤامراتهم ضده وضد من آمن بدعوته .

ربى رسول الله ﷺ أصحابه على الشجاعة ، فذكرهم بأنهم ينبغى عليهم ألا يخافوا فى الحق لومة لائم ، ففى حديث عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : عن النبى ﷺ قال : " **إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : ياظالم ! فقد تودع منهم** " . وعن أبى ذر الغفارى ﷺ قال : " أوصانى

خليلى بخصال من الخير : أوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق ولو كان مراً "، وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " **لا يحقر أحدكم نفسه !** " ، قالوا : يارسول الله ! وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : " **يرى أن لله عليه مقالاً ، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله ﷻ يوم القيامة : ما منعك أن تقول فىَّ كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول الله : كنتُ أحق أن تخشى !** ".

حقاً ينبغى على الداعية ألا يكون جباناً فى مواجهة العصاة ، ولا عاجزاً عن قول الحق فى وجه الجبابرة والطغاة ، ولا متهاوناً فى العمل على تغيير المنكر ، مهما كانت الظروف المحيطة به ، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس . غير أن عليه ألا يكون متهوراً فى شجاعته ، ولا غليظ القول فى جرأته على قول الحق ، فلا يسب ، ولا يشتم ، حتى لا يقابل برد فعل يكون أشد من المنكر نفسه ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام : ١٠٨]

فقد أمر الله المؤمنين على لسان سيد الدعاة بأن يلتزموا فى محاوراتهم مع المشركين بالكلمة التى هى أحسن ، فلا يغلظوا القول لهم ، ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، كما بَيَّنَ لهم أن الشيطان قد يحملهم على الغلظة فى الدعوة إلى الله ، لينفر الناس منهم ، يقول تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٥٣ – ٥٤]

فالداعية شجاع لا يخشى فى الحق لومة لائم ، فلا يداهن أحداً ، ولا يخاف جباراً ولا متكبراً . وفى الوقت نفسه لين القول ، حسن الأسلوب ، فلا غلظة فى موعظته ، ولا خشونة فى نصيحته ، ولا تجريح ولا تلميح لأحد فى كلامه ، بل رءوف بالناس ، عطوف عليهم ، حريص على هدايتهم ، يسلك من الطرق أحسنها للوصول إلى هدفه ، وينهج من

الأساليب أرقها مع المدعوين ، كى يقنعهم بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، وبالقرآن نظاماً ومنهجاً لمعاشهم ومعادهم .

تعقيب

كان الرسول ﷺ أسوة لجميع الناس ، يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، فهو قدوة لجميع أفراد المجتمع ، كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، وسواء كان حاكماً أو محكوماً ، إذ يستطيع كل إنسان أن يرى الجانب المطابق لحالته ، فيتبع سيرته ، وقد بين الأستاذ الندوى ذلك ، فقال:

لقد مثلت حياة النبى ﷺ أعمالاً كثيرة ومتنوعة . بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة ، والمنهج الأعلى للحياة الإنسانية فى جميع أطوارها ، لأنها جمعت بين الأخلاق العالية ، والعادات الحسنة ، والعواطف النبيلة المعتدلة ، والنوازع العظيمة القويمة . فإذا كنت غنياً مثرياً ، فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجراً يسير بسلعة بين الحجاز والشام : وحين ملك خزائن البحرين . وإن كنت فقيراً معدماً فلتكن لك أسوة به وهو محصور فى شعب أبى طالب ، وحين قدم إلى المدينة مهاجراً إليها من وطنه ، وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئاً . وإن كنت ملكاً فاقتد بسننه وأعماله حين ملك العرب وغلب على آفاقهم ، ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم . وإن كنت رعية ضعيفاً : فلك فى رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوماً بمكة فى نظام المشركين . وإن كنت فاتحاً غالباً ، فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه فى بدر وحنين ومكة . وإن كنت منهزماً — لا قدر الله ذلك — فاعتبر به فى يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفاقه المثخنين بالجراح . وإن كنت معلماً ، فانظر إليه وهو يعلم أصحابه فى صحن المسجد . وإن كنت تلميذاً متعلماً ، فتصور مقعده بين يدى الروح الأمين جاثياً مسترشداً . وإن كنت واعظاً ناصحاً ومرشداً أميناً ، فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوى . وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف ، وأنت

لا ناصر لك ولا معين ، فانظر إليه وهو ضعيف بمكة ، لا ناصر ينصره ، ولا معين يعينه ، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق ويعلن به . وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته ، وقهرت عناده ، فظهر الحق على يديك وزهق الباطل ، واستتب لك الأمر ، فانظر إلى النبى ﷺ يوم دخل مكة وفتحها . وإن أردت أن تصلح أمورك ، وتقوم على ضياعك ، فانظر إلى النبى ﷺ وقد ملك ضياع بنى النضير وخيبر وفدك ، كيف دبر أمورها وأصلح شئونها ، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها . وإن كنت يتيماً ، فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله ، وقد توفيا ، وابنهما صغير رضيع . وإن كنت صغير السن ، فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية . وإن كنت شاباً ، فاقرأ سيرة راعى مكة . وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع ، فلاحظ شئون سيد القافلة التى قصدت " بصرى " . وإن كنت قاضياً أو حكماً ، فانظر إلى الحَكَم الذى قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود فى محله ، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون ، ثم ارجع البصر إليه مرة أخرى ، وهو فى فناء مسجد المدينة يقضى بين الناس بالعدل يستوى عنده منهم الفقير المعدم ، والغنى المثرى . وإن كنت زوجاً ، فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة . وإن كنت أبا أولاد ، فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء ، وجد الحسن والحسين . وأياً من كنت ، وفى أى شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت ، وعلى أى حال بت أو أضحيت ، فلك فى حياة محمد ﷺ هداية حسنة ، وقدوة صالحة ، تضيء لك بنورها دياجير الحياة ويتجلى لك بضوئها ظلام العيش ، فتصلح ما اضطرب من أمورك ، وتثقف بهديه أودك ، وتُقوِّم بسنته عوجك . وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هى ملاك الأخلاق ، وجماع التعاليم لشعوب الأرض وللناس كافة ، فى أطوار الحياة كلها ، وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها . فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدى ، وإرشادها ملجأ لكل مرشد .

منارات على طريق الدعوة

إذا كانت سيرة صاحب الدعوة ﷺ منارة يهتدى بها المسلمون — وخاصة : من يقوم منهم بواجب الدعوة إلى الله ، إذ يتبعها فى سلوكه ، ويستشهد بها فى أحاديثه ومواعظه ، ويستدل بها فى إقناع المتشككين والمترددين - ، فإن ما سلكه الرواد الأوائل لا يقل أهمية فى مجال الدعوة إلى الله ، إذ يستشهد الدعاة بسيرتهم فى مجال حمل الناس على تعاليم القرآن ومبادئ الإسلام الحنيف ، لأن النفس تتأثر بالجانب العملى أكثر من تأثرها بالجانب النظرى ، كما يلعب سلوك الرواد الأوائل ، وتطبيقهم لتعاليم الإسلام فى مجالات الحياة المختلفة دوراً كبيراً فى إقناع المدعوين إلى الإسلام ، لأنه يبين لهم أن الإسلام ليس شعارات بعيدة عن التطبيق ، فهو ليس نظريات جوفاء ، ولا تعاليم صماء ، بل قابل للتطبيق ، فمبادئه لا تتنافى مع طبيعة الحياة الإنسانية ، إذ ليس هناك فجوة بين منطوق التعاليم ، وواقع الحياة الإسلامي ، بل إن حياة المجتمع الإسلامى — فى معظمها - كانت صفحة يقرأ فيها كل ما يطلبه الإسلام من المسلمين ، فقد كانت التطبيق العملى لما فى القرآن الكريم من عقائد وأخلاق ، والمثال الحى لصورة المسلم الذى يدعو إليها وحى الله الذى أنزل على محمد ﷺ .

ومن الجدير بالذكر هنا أن من أهم وسائل الدعوة بيان ماكان عليه كبار الصحابة ، وخاصة الخلفاء الراشدون ، إذ عندما يتحدث الداعية عن الإسلام ، فإن سيرة هؤلاء تأتى فى مقدمة ما ينبغى ذكره ، ليبين للناس أن الإسلام ربى جيلاً قل أن يتحدث تاريخ الإنسانية عن مثيل له . جيل ضرب المثل الأعلى فيما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان مع أخيه ، ووضح من تاريخه أن ما يعتبره الإنسان مستحيلاً فى مجال العلاقات بين الحاكم والمحكوم ، يمكن أن يتحقق لو سار الناس على هدى الله ، واتخذوا هؤلاء الرواد مثلاً أعلى لهم ، ينهجون نهجهم ، ويتبعون أسلوبهم فى الحكم والإدارة ، وتحمل المسئولية ، والحرص على مصالح الرعية ، والمحافظة على الحقوق ، سواء كانت تتعلق بالأمة ، أو بفرد من أفرادها ، مهما كان مركزه الاجتماعى ، وموقعه الطبقى فى المجتمع .

ولو أردنا سرد أمثلة من هذا النوع لطال بنا المقام ، ولهذا نوصى الدعاة ببيان ذلك للناس ، لأن كل تصرف من تصرفات الصحابة ﷺ ، وقرار من القرارات التى اتخذوها يعتبر دستوراً للحكام فى هذا العصر ، ومثالاً ينير للشعوب طريقها التى تراكمت فوقها ظلمات الولاة والقادة . ولكن لا بأس أن نذكر بعض الأمثلة للتذكير فقط ، آملين أن يجدْ فيها الدعاة خيطاً يهديهم إلى ما ينبغى عليهم عمله فى هذا المجال ، حتى يتذكر اللاهون ، وينتبه الغافلون .

عندما ولى أبو بكر ﷺ خليفة لرسول الله ﷺ خطب الناس فكان أول كلام قاله لهم هو : " أيها النآس ! إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأطيعونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء .-أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم ".

فنرى فى هذه الخطبة ما يجب أن يكون عليه أمير الأمة ، فإذا أراد الحاكم المسلم أن يسلك الطريق المستقيم ، فيجب عليه أن يقتدى بأبى بكر ﷺ ، فلا يظن أن مكانته أسمى من مكانة أى مسلم ، فقد نفى أبو بكر أن يكون أفضل من الرعية فى مطلع خطبته . كذلك رسم مبدأ نقد الحاكم ، حين طلب أن يقوموه ، لو رأوا منه إساءة . ووضح لهم أن الناس أمامه سواسية ، فلا قوة لأحد إلا باتباعه الحق ، كما أن من يحيد عن الحق لن يجد إلا المساءلة ، مهما كان مركزه فى المجتمع ، ولم ينس نصحهم بأنهم جميعاً مسئولون عن حماية الأمة ، فلا يحق لأحد التقاعس عن الجهاد ، وإلا ضرب الله عليهم جميعاً الذلة والمسكنة .

فيجب على كل مسئول أن يتأسى بأبى بكر ﷺ ، ويتخذه قدوة له ، فلا يتعالى على مرءوسيه ، ويستجيب لنصحهم ، بل يحثهم على تقديم النصح له ، دون خوف ، أو وجل ، وأن يعدل بينهم ، ويسهر على مصالح الناس ، ويحمى المجتمع ، ويحافظ عليه ، كى يحشر مع

الزمرة ، الذين اهتدوا بهدى الله ، واتبعوا سنة رسوله ، ونهجوا طريق أصحابه رضوان الله عليهم جميعاً .

لم تكن خطبة أبي بكر وسيلة دعائية ، يرغب من ورائها الحصول على شعبية فى المجتمع ، كما فعل الرؤساء - وما زالوا يفعلون- فى هذا العصر عندما يتولون الحكم ، إذ نجد فى أول لقاء لهم مع الجماهير رقة فى المتاعر ، وعطفاً على الناس ، ووعوداً رنانة ، ومبادئ صيغت فى كلمات تسلب لب الجماهير ، وتأسر عواطفهم ، وتستولى على مشاعرهم ، ثم ما يلبث أن يذوب هذا كله فى خضم الإجراءات التعسفية ، والقرارات المجحفة ، والسلوك الدكتاتورى ، والحرص على تكوين طبقة من المنتفعين حوله ، بحيث لايرى بؤس الناس ، ولا يحس بآلامهم ، ولا يهتم بمشاكلهم ، بل يصبح كل همه المحافظة على السلطة ، وتقوية مركزه فى الحكم .

لقد كانت خطبة أبي بكر تعبيراً صادقاً عما فى نفسه إزاء المسلمين ، وبياناً واضحاً للعلاقة التى يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم ، فلا غش ولا خداع ، ولا مداهنة . وكيف يكون ذلك ، وهو صاحب رسول الله ﷺ وخليله ، تربى على مأدبة النبوة ، وغذى من منبع الوحى الأول ، فلم تكن سيرته مخالفة لقوله ، ولم يكن سلوكه بين الناس إلا نابعاً من منبع الوحى . ولهذا نرى فى سيرته الفعلية بين الناس ، ما يحمل المسلمين — والمنصفين من غير المسلمين — على الوقوف إجلالاً وتعظيماً لهذه الشخصية الإسلامية ، وتحس عند قراءة تاريخه بالعظمة والإكبار لهذا الرجل ، الذى يجب أن يقتدى به الحكام ، إن أرادوا الخير لأنفسهم فى الدنيا والآخرة ، ورغبوا فى تحقيق حياة آمنة مطمئنة لرعيتهم .

انطلق أبو بكر ﷺ غداة مبايعته خليفة للمسلمين إلى السوق ساعياً إلى كسب قوته وقوت أولاده ، فلما سأله بعض الصحابة عمن يقوم بأمر المسلمين ، عندما يكون مشغولاً بالسعى وراء رزقه ، أجابه بأن واجبه يحتم عليه السعى لإطعام أهله ، فتشاور المسلمون فى ذلك ، ثم اتفقوا على تأمين ذلك له من بيت المال مقابل انشغاله بأمر المسلمين .

أى نفس تلك التى لم تغتر بهذا المنصب الكبير ، فتستغله فى الحصول على الأموال ، بل دفعت صاحبها ـ وهو خليفة المسلمين ـ إلى أن يذهب إلى السوق ، فيعمل مثل ما يعمل أى مسلم ، لا فرق بينه وبين أقل مسلم فى المجتمع ؟

إنها نفس تربت فى مدرسة النبوة ، حيث علمهم النبى ﷺ أن لا فضل لأحد على آخر بمركز اجتماعى ، ولا بمنصب سياسى ، حتى ولو كان خليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ، إنما الفضل بما يملك الإنسان من نفس زكية ، وسريرة طاهرة ، وعمل صالح ، فلا فضل إلا بالتقوى ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ١٣]

لم يفكر أبو بكر ﷺ فى أن تكون له ميزة على آخر بهذا المنصب الذى اختاروه له ، بل ظنه تكليفاً ومسئولية ، فليس وسيلة لمنفعة مادية ، ولا طريقاً لرفع مركزه أدبياً أو اجتماعياً ، بل إنه كان يتصرف مع الناس مثل ما كان قبل توليه الخلافة ، فقد كان يأتى لبنات الحى ممن فقدن آباءهن فى الحرب فيحلب لهن غنمهن ، ويقول " أرجو ألا تغيرنى الخلافة عن خلق كنت أعتاده من قبل " ، فقد كان يحلب لهن الغنم قبل توليه الخلافة ، واستمر على ذلك بعد ولايتها .

أرسى أبو بكر ﷺ قواعد فى مجال الحكم – على الرغم من قصر مدة خلافته – تعتبر دساتير ، يجب أن يقتدى به الحكام فيها ، إذ نفذ أمر رسول الله ﷺ فى إرسال جيش أسامة ، ووقف مع المرتدين وقفة تدل على قوة إيمانه ، وصدق عزيمته ، وحرصه الشديد على المحافظة على الأمانة ، التى قبل أن يتحملها أمام الله والمسلمين ، فقال قولته المشهورة : " والله ! لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليها ، والله ! لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ". كما وضع اللبنة الأولى لمبدأ الشورى ، فكان يستشير أهل الرأى فى كل أمر من أمور المسلمين ، فلو سار حكام المسلمين اليوم على طريقته فى الحكم لتجنبوا كثيراً من الإجراءات التى تغضب شعوبهم ، وتثير عليهم معارضيهم .

* * *

ومن بين الذين ينبغى الاقتداء بهم ، والالتزام بمنهجهم فى مجال الحكم:عمر بن الخطاب ﷺ ، فأسلوبه فى تدبير أمر الدولة فريد فى نوعه ، إذ قلّ أن يجد المرء له مثيلاً فى تاريخ الإنسانية كلها ، فما روى التاريخ أروع ، ولا أبلغ من سيرته مع ولاة المسلمين ، ولا

عرفت الإنسانية حاكماً أكثر حرصاً على رعيته منه ، فلم يوجد – ولن يوجد – فى حضارات الأمم كلها ما يعادل روعة عمر فى " **ديمقراطيته** " ، إذ كان يسهر على مصالح المسلمين وهم نيام ، ويهتم بأمر الرعية ، ويقدم خدماته للصغير والكبير على السواء .

وقد يكون فى سرد بعض ما قام به تذكرة لأولى الألباب ، وتوعية لمن يتولى أمر المسلمين ، لعل وعسى أن يهتدى بسيرته من لا يزال فى قلبه ذرة من إيمان ، ويقتدى به من لديه الاستعداد للإصلاح ، فقد حدَّثَ أَسْلَم ، خادم عمر ، قال : خرجت مع عمر ليلة ، وبعدنا عن المدينة ، ونحن نتفقد أهل المنازل النائية ، فبصرنا بنار من بعيد ، فقال عمر : إنى أرى هاهنا ركباناً قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ! فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون (أى يتصايحون ويبكون) ، فسلم عمر ، ثم سأل المرأة : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، فقال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال : وأى شيء فى هذا القدر ؟ ، قالت : ما أُسْكِتُهُم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر ، فقال : أى رحمك الله ، ما يدرى عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ فأقبل علىَّ فقال : انطلق بنا ! فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عِدْلاً من دقيق وكبة من شحم ، وقال : احمله علىّ ! قلت : أنا أحمله عنك ، قال : أأنت تحمل وزرى يوم القيامة ، لا أم لك ؟ فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذرّى علىّ وأنا أحرُّ لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته ، ثم طبخ لهم ، ثم أنزلها ، وقال : أبغنى شيئاً ، فأتته بصفحة فأفرغها فيها ، فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم (أى أبسطه حتى يبرد) . فلم يزل حتى شبعوا ، وترك عندهم فضل ذلك ، وقام ، وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين ، فيقول : قولى خيراً ، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله ، ثم تنحى ناحية عنها ، ثم استقبلها فربض مربضاً ، فقلت : ألك شأن غير هذا ؟ فلا يكلمنى ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ثم ناموا وهدءوا ، فقام يحمد الله ، ثم أقبل

علىّ ، فقال: يا أسْلَم ! إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت ...**أى نمط هذا بين الحكام ؟؟؟؟؟**

إنه نمط فذ فى تاريخ الإنسانية ، لا يحدث إلا ممن تربى فى محراب النبوة ، ففقه تعاليم الشريعة الإسلامية . اسمع ما يرويه التاريخ من أنه كان ذات يوم يتفقد – على عادته – الناس ، فمر برحبة من رحاب المدينة ، فإذا ببيت شعر ، ينبعث منه أنين امرأة ، وعلى بابه رجل قاعد ، فسلم عليه عمر ، وسأله من هو ، فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين ، فقال عمر : ما هذا الصوت الذى أسمعه فى البيت ؟ قال الرجل وهو لا يدرى أنه عمر ، أمير المؤمنين : إنطلق رحمك الله لحاجتك ، ولا تسأل عما لا يعنيك ، فألح عليه عمر ، يريد معرفة الأمر ، فأجابه : إمرأة تمخَّض – أى على وشك الولادة – وليس عندها أحد . فعاد عمر إلى منزله ، وقال لامرأته أم كلثوم بنت على ﷺ : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ فأخبرها الخبر ، وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب ، وما تحتاج إليه المرأة من دهن ، وأن تأخذ معها قدراً وتضع فيه حبوباً وسمناً . فجاءت به فحمل القدر ، ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت ، وقال لامرأته : أدخلى إلى المرأة ، وجلس هو مع الرجل ، وأوقد النار ، وطبخ ما جاء به ، والرجل لا يعلم من هو ! وولدت المرأة ، فقالت زوجة عمر من داخل البيت : بشر ، يا أمير المؤمنين ! صاحبك بغلام ! فلما سمع الأعرابى ذلك ، علم أنه أمير المؤمنين ، فكأنه هابه ، فأخذ يبتعد وعمر يقول له : مكانك كما أنت . ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه لتطعم المرأة ، فلما أكلت ناول الرجل القدر ، وقال له : كل ويحك ، فإنك سهرت الليل كله ، ثم خرجت زوجته ، وقال للرجل : إذا كان غداً ، فائتنا نأمر لك بما يصلحك . فلما أصبح أتاه ، ففرض لابنه فى الذرية وأعطاه .

كانت رعاية الخلفاء الراشدين سلوكاً نابعاً من عقيدتهم ، فلم يكن القصد منه كسب تأييد شعبى ، بل امتثالاً لأوامر الله ، وتنفيذاً لوصاياه ، كى ينالوا رضاه ، ويحصلوا على ثوابه ، ولهذا لم تتركز فى جانب دون آخر ، بل شملت جميع جوانب الحياة ، فأقاموا العدل بين الناس دون تمييز بين غنى وفقير ، ولا بين أمير وحقير ، بل إنهم ساووا فى المحاسبة على

كل صغيرة وكبيرة بين المسلم وغير المسلم . فقد روى أن صبيين : أحدهما مصرى قبطى ، والآخر ابن عمرو بن العاص - والى مصر وحاكمها - تشاتما ، فأخذت العزة ابن عمرو ، فصفع ابن المصرى ، وقال له : أنا ابن الأكرمين . فما كان من أبيه إلا أن أخذه وسافر به إلى المدينة ، ليشكو لعمر بن الخطاب .

قطع هذه المسافة الطويلة بوسيلة مواصلات بدائية ، ليرفع شكواه من أمر يحدث كل يوم بين الأطفال ، بل إن الآباء كثيراً ما يتغاضون عن مثل هذه الإهانات لأولادهم ، إذا رأوا بعض مشقة فى رفع الأمر إلى ولى أمر الطفل المعتدى ، لكن القبطى قطع هذه المسافة الطويلة ، ليتأكد مما يدعيه المسلمون من أن دينهم أمرهم بإقامة العدل ، حتى ولو كان بين أولى القربى والأعداء .

فأثبت له عمر ﷺ بأن الإسلام ليس شعارات ترفع ، وإنما هو مبادئ آمن بها المسلمون ، والتزموا بها ، فاستدعى عمرو وولده ، وأمر ابن القبطى أن يضرب ابن عمرو كما ضربه ، قائلاً له : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال كلمته المشهورة : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً** ".

فلو بحثنا فى التاريخ القديم والحديث عن موقف كهذا لأى حاكم من حكام المجتمعات الإنسانية قاطبة ، فلن نجد ، لأنه كما كان الإسلام فريداً بين الأديان والنظم ، فكذلك كان رواده الأُوَل نماذج للإنسانية ، لا يرقى إليها أى نموذج على وجه الأرض حتى الآن . فالحضارة الحديثة - على الرغم من صوت دعاتها الرنان ، بأنها أرست قواعد حقوق الإنسان فى المجتمع المعاصر - لم يبلغ دعاتها ، والمنتمون إليها فى تعاملهم مع شعوبهم الدرجة التى كان عليها الخلفاء الراشدون ، وإلا فليخبرنى أحد - إن استطاع - عن حادثة تشبه ما حدث لعلى بن أبى طالب - وهو أمير المؤمنين - مع مواطن عادى ، ليس على دينه ! ؛ فقد سقطت درع عَلِىّ ، فالتقطها نصرانى ، فعرفها عَلِىٌّ معه ، فقال : هذه درعى . ولكن الرجل أنكر ، وادعى أنها ملكه ، فلم يملك أمير المؤمنين إلا أن يقول للنصرانى : بينى وبينك القضاء ، وذهبا إلى القاضى شريح . وبعد سماع الخصمين ، طلب القاضى من الخليفة بَيِّنَة على دعواه ، أو شهوداً ، فلم يكن عنده ، فما كان من القاضى إلا أن حكم للرجل النصرانى بالدرع بحكم وضع يده عليه .

ودهش النصرانى لهذا الحكم الذى لم يكن يتوقعه ، فقال : أشهد أن هذه أحكام أنبياء ، أمير المؤمنين يذهب معى إلى قاضيه – وهو الذى ولاه ، ويملك عزله – فيحكم لى عليه ، وهو يعلم أنه لا يكذب !!!!! أما إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ... الدرع درعك يا أمير المؤمنين ، سقطت منك ، فأخذتها . قال على : أما قد أسلمت ، فهى لك .

فى أى مجتمع يحدث هذا ؟

وفى ظل أى حضارة يمكن أن يرى المرء مثل هذا الإجراء ؟

هل يتصور الإنسان المعاصر ، ابن القرن الواحد والعشرين ـ حيث بلغت الإنسانية أوج عظمتها ، وتعالت أبواق دعايتها بما تدعو إليه من عدل ، وإخاء ، ومساواة بين الأجناس البشرية ـ أن يعامل رئيس دولة أحدَ رعاياه بمثل هذه المعاملة ، على الرغم من تأكده بأنه لا حق له فيما يدعيه ؟ !!!!!!

إن هذا فوق ما يتصوره العقل ، و يعترف به المنطق ، لكن العقيدة الإسلامية كان لها من القوة والنفوذ فى نفوس من آمنوا بها ، فهذبت أخلاقهم ، وقومت سلوكهم ، فأصبحوا نماذج فوق مستوى ما عرفته الإنسانية ، بل لازالوا أرقى ما يمكن أن يصبو إليه الإنسان على المستويين : الفردى و الجماعى . فعلى المسلمين أن يسيروا على هداهم ، ويقتفوا أثرهم فى جميع مجالات الحياة .

ليس وجوب القدوة بالخلفاء الراشدين فى كيفية قيام الحاكم برعاية أمور الرعية قاصرة على المسلمين منهم ، بل يجب أن تشمل الرعاية كل من يعيش فى المجتمع الإسلامى ، بصرف النظر عن عقيدته وجنسه ، فقد بين لنا عمر ﷺ فى سلوكه مع رعيته أن عطفه وحمايته أظلت كل من عاش فى المجتمع الإسلامى ، حتى ولو لم يكن مسلماً ، لأن الإسلام أوجب على الدولة الإسلامية أن تحمى أماكن عبادة اليهود والنصارى ، وحرم على المسلمين أن يتدخلوا فى عقائدهم ، كما أمر أولى الأمر أن يسووا بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات العامة ، وأن يصونوا كرامتهم وحياتهم ومستقبلهم ، كما تصان كرامة المسلمين وحياتهم ومستقبلهم .

كانت حياة الخلفاء الراشدين ، وتصريفهم لأمور الدولة ، تطبيقاً لهذه الأوامر والوصايا التى أنزلها الله فى كتابه الكريم ، ووردت فى سنة رسوله ﷺ ، فاعتنوا بأمر الرعية دون تفريق بين مسلم وغير مسلم ، فقد روى أن امرأة مسيحية جاءت إلى عمر بن الخطاب ، فشكت له أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها فى المسجد كرهاً منها ، فسأل عمرو عن ذلك ، فأخبره بأن المسلمين كثروا ، وأصبح المسجد يضيق بهم ، وفى جواره دار هذه المرأة ، وقد عرض عليها ثمن دارها وبالغ فيه ، فلم ترض ، مما اضطره إلى هدم دارها وإدخالها فى المسجد ، ولكنه وضع قيمة الدار فى بيت المال ، وأخبرها بأن لها أن تأخذه متى شاءت .

هذا إجراء تبيحه القوانين المعاصرة ، فلا أحد يعترض على نزع الملكية الخاصة فى سبيل المصلحة العامة ، فكان من المتوقع أن يُقِرّ عمر بن الخطاب ما فعله عمرو بن العاص ، لأن ذلك من الأمور الضرورية ، ولو فعل ، ما كان أحد يستطيع أن يلومه ، ولا يجرؤ أحد من النقاد فى العصر الحديث أن يعترض على ذلك ، لأنه من الأمور المسلم بها على جميع الأصعدة : المحلية والدولية ، إذ لا يوجد من يحرم ذلك ، أو يوجه أدنى لوم لمن يتخذ مثل هذا الإجراء . لكن عمر خالف هذا ، إمعاناً فى بيان عدالة الإسلام ، وبياناً واضحاً لحكام المسلمين من بعده ، بألا يصادروا ملكية أحد إلا برضاه ، وإقناعه بأن ذلك فى سبيل مصلحة الدولة ، وبأن يأخذوا بعين الاعتبار أنه لا يجوز لهم أن يفرقوا فى ذلك بين مسلم وغير مسلم . لم يرض عمر بما فعله عمرو ابن العاص ، فأمر بهدم البناء الجديد من المسجد ، وإعادة البيت إلى صاحبته المسيحية .

أين هذا مما تفعله سلطات الاحتلال فى جميع بقاع الأرض ، من هدم لمنازل المواطنين ، أصحاب الأرض الحقيقيين ن بدون سبب ، وانتزاع المواطنين من أرضهم التى ولدوا فيها ، واختلط عرقهم بترابها ، وإعطائها لمن ليس لهم حق فيها ؟ !!!!!

إن ما نبينه فى مجال القدوة الحسنة من صفحات ناصعة فى حياة حكام المسلمين فى الصدر الأول للإسلام ، لدعوة واضحة للمجتمعات الإنسانية المعاصرة — التى فقدت الإحساس الإنسانى ، فطغت ، وبغت ، وتجبرت ، واستكبرت — بأنه لن يخرجها من بؤسها وشقائها إلا بالاقتداء بما كان يفعله أولئك الرواد الذين تربوا فى رحاب النبوة ، فساروا سيرة

حسنة بين الناس : عطفوا عليهم ، وأحسنوا إليهم ، وحافظوا على حياتهم ومالهم ومستقبلهم ، كما قدموا العون للمحتاجين ، دون تمييز على أساس الجنس ، أو العرق ، أو الدين ، فعاش كل الناس تحت مظلة الإسلام آمنين مطمئنين .

روى أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى فى السوق شيخاً كبيراً يسأل الصدقة ، فقال له : ما أنت يا شيخ ؟ قال : أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة ، وكان يهودياً من سكان المدينة . فإذا بعمر يقول له : ما أنصفناك يا شيخ ، أخذنا منك الجزية شاباً ، ثم ضيعناك شيخاً ، وأخذ بيده إلى بيته ، فقدم له ما كان من طعامه ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول : " **افرض لهذا ما يغنيه ، ويغنى عياله** ".

واقع المسلمين فى مجال القدوة

تركز حديثنا حتى الآن حول القدوة على الاستشهاد بسيرة النبى ﷺ ، وعلى سرد ما كان عليه الخلفاء الراشدون ، وهذا فى حد ذاته جزء هام جداً فى مجال القدوة ، غير أنه لا يؤثر تأثيراً كبيراً فى مجال عرض الإسلام على المجتمع الدولى فى الوقت الراهن ، ذلك أن مثل هذه الاستشهادات لا يكون لها أثر كبير إلا على الدارسين ، والمهتمين بالشئون الثقافية العالمية ، وهؤلاء لا يمثلون إلا نسبة ضئيلة جداً فى المجتمعات الإنسانية ، أما سواد الناس فوسائل التأثير عليهم فى هذا المجال تختلف عن هذا المنهج ، إذ أننا لو اعتبرنا القدوة وسيلة من وسائل الدعوة فى المجتمع الإسلامى ، أو أسلوباً من أساليب الإقناع مع المهتمين بالثقافات العالمية من أبناء الأديان الأخرى ، فإنها لا تصلح وسيلة للدعوة مع عامة الناس ، لأنهم لا يعيرون اهتماماً كبيراً لما حدث فى الماضى ، ولا لما يحتويه التراث من مبادئ وتعاليم ، بل يركز اهتمامهم على صورة الحياة فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، فإن كانت قائمة على أسس تتناسب مع طبيعة الحياة البشرية ، وتلبى حاجات الفرد والمجتمع ، وتحافظ على كل ما من شأنه أن يرفع قدر الإنسان فى إطار حياة اجتماعية قائمة على أساس العدل والمساواة ، وتكافؤ الفرص فى كل ما هو متاح للإنسان فى الطبيعة المحيطة به ، سواء تعلق ذلك بالاقتصاد ، أو بالحكم ، أو اتصل بالسلم الطبقى فى المجتمع ، فإنه يميل إلى التعرف

عليها ، والبحث عما وراءها من أفكار ، ومحاولة معرفة المبادئ والتعاليم الدينية التى تحكم هذا الإطار السليم للحياة البشرية . أما إذا رأى صورة المجتمع الإسلامى تتنافى مع طبيعة الحياة البشرية ، وتتصادم مع المبادئ الأولى لكيان الإنسان ، فإنه سوف ينفر من هذه الصورة ، ويحتقر أهلها ، بل ويربط بين ما فيها من سلبيات وبين العقيدة ، وبالتالى سوف يرمى هذه العقيدة بكل ما عنده من نقائص ، وينسب إليها كل ما فى المجتمع من انحرافات وانهيارات فى الهيكل السياسى والاجتماعى ، ويرجع أسباب التخلف فى المجتمع إليها .

ومن هنا نرى أن صورة المجتمع الإسلامى ، بما فيه من أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية...... وغيرها تلعب دوراً كبيراً فى مجال الدعوة إلى الإسلام فى المجتمعات الدولية ، بل نكاد نجزم أنها الوسيلة الوحيدة فى العصر الحديث للدعوة إلى الله . فعلى الرغم من أن إنسان العصر الحديث واقع تحت تأثير الدعاية الكلامية — عن طريق استخدام وسائل الاتصال الحديثة فى المجال الإعلامى — إلا أن أسلوب الحياة فى المجتمع الإسلامى بالغ الأثر على ذلك الإنسان ، وخاصة إذا عرفنا أن أعداء الإسلام يستخدمون هذه الوسائل المتطورة فى مجال الدعاية لإبراز الجوانب السلبية فى المجتمع الإسلامى ، كى يوهموا العامة أنه دين لا يصلح للحياة المعاصرة . فلو التزم المسلمون فى حياتهم داخل مجتمعهم بالتعاليم الإسلامية ، لأسهموا فى الدعوة إلى الإسلام ، إن لم يكن بالإعلام بذلك عن الإسلام ، فلا أقل من الحد من استعمال الوسائل الحديثة فى الاتصال لإبراز مساوئهم ، وكشف عوراتهم أمام أعين الناس فى المجتمعات الدولية .

ولكن ، ما هى معالم الحياة التى يجب أن يسير عليها المسلمون فى مجتمعهم ، حتى يكونوا قدوة لغيرهم ، أو يكونوا صورة تقنعهم بصلاحية الإسلام للحياة فى العصر الحديث ؟

رسم الإسلام لحياة الإنسان داخل المجتمع صورة متعددة الجوانب ، ومتشابكة مع عدة أطراف ، ومع ذلك أعطى لكلٍّ حقوقه ، كما طلب منه واجبات يؤديها . وعلى أساس التبادل بين الحقوق والواجبات تقوم الحياة فى المجتمع الإسلامى ، ويستقر المجتمع بالتوازن بينها ، فلو طغت إحداهما على الأخرى اختل التوازن ، فتضطرب الحياة ، وينهار المجتمع ،

وبالتالى يضيع الفرد بين الانهيار والاضطراب . وحتى لا تكون القضايا عامة يحتار المرء فى تحديدها ، نريد أن نبين الأسس اللازمة لحياة المجتمع ، وهى بلاشك تلعب دوراً كبيراً فى إثبات أن الإسلام يصلح للحياة المعاصرة ، وبالتالى سيكون بيانها دليلاً واضحاً على أهمية تطبيقها فى المجتمع الإسلامى ، كى تكون عنواناً له ، ليهتدى الآخرون ، بعد أن يدركوا فعالية الإسلام فى المجتمع المعاصر .

أولى هذه الأسس : **الحرية** ، إذ بها قوام الفرد والمجتمع ، فمن لا حرية له ، فلا حياة له ، ولهذا منحها الله للإنسان ، فلم يجبره على اعتناق عقيدة الإيمان به وتوحيده ، بل ترك له الحرية فيما يعتقد ، حتى وإن أنكر وجوده ، أو أشرك معه آلهة أخرى ، يقول تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وينكر على محمد ﷺ حرصه الشديد على أن يؤمن الناس ، حرصاً يكاد يبلغ حد الإكراه ، فقال له : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس : ٩٩]

الحرية فى المجتمعات المعاصرة

ترفع الحضارة الحديثة كثيراً من الشعارات ، مدعية أنها حققت للإنسان ما لم يكن فى متناول يده على مر التاريخ البشري ، ومن هذه الشعارات : ادعاؤها بأنها أرست قواعد الحرية فى المجتمع ، وثبتت دعائمها فى المجتمعات الإنسانية ، فبعد أن كان الإنسان مستعبداً لزعيم القبيلة فى العصور الأولى ، ومن بعده للملوك والأمراء ، صار اليوم حراً فى حياته ، يستطيع أن يكيفها حسبما يشاء ، وعلى أى كيفية يريد . بل إن ما يحتل المركز الأول فى وسائل الإعلام الحديثة ، ويحظى باهتمام كبير من المحللين السياسيين والمعلقين الإعلاميين ، هو التركيز على حرية الإنسان فيما يعتقد ، والتأكيد على حقه فى التعبير عن أفكاره وآرائه ، دون خوف من حاكم ، ولا وجل من رئيس ، إذ يستطيع الفرد فى ظل الحضارة

obeikandi.com

الغربية أن يدلى برأيه فى شئون الحياة ، حتى ولو عارض أرباب السلطة ، وأصحاب الهيمنة ، مهما كانت قوتهم وسلطانهم .

استقر هذا الرأى فى أذهان الناس ، على الرغم مما فيه من مبالغات تتنافى مع الحقيقة ، لدرجة أنهم أصبحوا يُقَيِّمُون المجتمعات والشعوب على أساس ما يتمتع به أفرادها فى مجال التعبير والنقد ، فإذا رأوا مجتمعاً يسيطر عليه نظام لا يسمح بهذا التعبير ، أو لا يتقبل النقد ، فإنهم ينظرون إليه من عَلٍ ، أى أنهم يعتبرونه من المجتمعات المتخلفة ، التى لم ترق بعد فى سلم الحضارة إلى حد احترام الحرية الشخصية ، والاعتراف بحق الإنسان فى التفكير بصوت عالٍ ، فهم يعتبرون أن هذا هو اللبنة الأولى – والأساسية – فى التقدم والرقى ، فمن لا حرية له فى الكلام ، فهيهات أن تكون له مقومات بناء حضارى .

وانطلاقاً من هذا المفهوم فإنهم يصنفون المجتمعات ، طبقاً لنظرتها إلى قضية الحرية ، ويميزون بينها على أساس قوة الحركة الفكرية فيها ، وشدة تفاعلها ، بما فيها من تدافع ، وتحاور ، وتصارع على الساحة الفكرية ، حيث تنطلق منها كل الطاقات التى تمد قطاعات المجتمع المختلفة بما يدفعها إلى الأمام باستمرار ، فتتطور وتتجدد دون أن تتوقف ، أو تنكمش ، أو تتجمد ، إذ أن حرية الحركة تذيب تجمدها ، وتحول دون توقفها ، وتعمل على استمرارية دفعها إلى الأمام ، فلا تعرف نقطة تقف عندها ، بل هى مستمرة فى التقدم إلى اللانهائى .

فإذا بحثنا عن وضع المجتمعات الإسلامية فى رأى هؤلاء ، فإننا نجدهم قد وضعوها فى ذيل قائمة تصنيف المجتمعات فى هذا المجال ، مدعين أنها مجتمعات لا يتمتع أفرادها بأى نوع من أنواع الحرية الشخصية ، إذ لا يستطيع المواطن أن يدلى برأيه فيما يدور حوله من أحداث ، حتى ولو كانت تتعلق بحياته بصورة مباشرة . ففى داخل الأسرة يقرر الأب مصير أبنائه دون اعتبار لرغباتهم ، بل دون سماع لرأيهم فى بعض الحالات ، وليس من المبالغة إذا قلنا : إن كثيراً من الآباء لا يحاولون استشعاف ميول أبنائهم ، حتى عن طريق الملاحظة من بُعْد ، فهو يمارس معهم " ديكتاتورية " مطلقة ، فيرسم لهم أسلوبهم فى الحياة ، ويحدد لهم

مستقبلهم ، بل أحياناً يتدخل بشكل سافر فى حملهم على تفضيل نوع من الطعام على آخر .

كذلك يعامل الرجل زوجته على اعتبار أنها ملك يده ، فيتجاهل مشاعرها ، ويلغى إرادتها ، ويرفض رأيها فى اتخاذ القرارات التى تحدد مصير الأسرة .

وهذه الصورة هى انعكاس للظاهرة العامة فى المجتمع بما فيها من علاقات بين الرئيس والمرءوس ، وبين الحاكم والرعية ، بل بين الأستاذ والتلميذ فى الفصول الدراسية ، وقاعات البحث العلمى .

وعلى الرغم مّما فى ذلك من مبالغات ، أدى إليها عدم معرفتهم بفلسفة العادات والتقاليد فى المجتمع الإسلامى ، فإن مما يثير انتباهنا أن يربط هؤلاء هذه الظواهر بالإسلام ، ثم يصلوا إلى نتيجة مفادها : أن الإسلام لا يعترف بالحرية فى المجتمع ، سواء كان ذلك فى محيط الأسرة ، أو على مستوى الحياة العامة ، إذ أنه قد أعطى للأب الحق فى تربية أبنائه على هذا النحو الذى لا يسمح لهم بالتعبير عن آرائهم — وخاصة المخالفة لرأيه – ، ولا بتحديد مستقبلهم ، كما أنه جعل المرأة ملكاً للرجل ، يتصرف فيها كما يتصرف فى متاعه .

ولاشك أن هذا التصور يحول بينهم وبين الإسلام ، إذ أنه يمنعهم من التفكير فى تعاليم الإسلام ، وبالتالى لن يفكروا فى اعتناقه ديناً .

فما مدى صحة هذا التصور بالنسبة للإسلام ؟
وهل يمكن أن تكون حياة المسلمين فى المجتمعات الإسلامية فى الوقت الراهن صورة صادقة للإسلام ، حتى تعتبر نموذجاً إسلامياً يحمل غير المسلمين على التفكير فيه ، ذلك التفكير الذى يؤدى بهم إلى اعتناقه ؟

ليس صحيحاً ما يشاع بين العامة من أن الإسلام أعطى للرجل الحرية المطلقة فى توجيه أبنائه ، دون أى اعتبار لميولهم واتجاهاتهم ، فقد بيَّن الرسول ﷺ للمسلمين الفصل فى هذه المسألة التربوية ، التى اختلف فيها المتخصصون قديماً وحديثاً ، فقد قال ﷺ : **" لاعب ابنك سبعاً ، وأدبه سبعاً ، وصاحبه سبعاً ثم اترك حبله على الغارب "**. إذ يلاحظ فى هذا الحديث أن التوجيه النبوى قام على أساس متطلبات كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان ،

فبين أن سن الطفولة يناسبه اللعب والمداعبة ، فإذا ما بلغ الصبى – أو الصبية – سن السابعة ، وهى سن التمييز ، لزم أن يؤدب بالطرق التى تغرس فى نفسه المبادئ والقيم ، وتحمله على ترسيخ العادات والتقاليد فى نفسه ، حتى لا ينحرف عنها ، فيسوء حاله ، وتضطرب حياته ، فتضيع شخصيته ، وينمحى كيانه فى المجتمع .

فإذا وصل إلى مشارف المرحلة الثالثة ، وهى الرابعة عشرة ، فينبغى على الأب أن يراعى فى توجيهاته ونصائحه أنه يكلم إنساناً قادراً على التفكير والموازنة بين الخيارات المتعددة ، إذ بلغ من النضج الفكرى ما يمكنه من إدراك السلبيات والإيجابيات . غاية الأمر أنه محتاج فى هذه المرحلة إلى من يبينها له بحكم خبرته ، ومن أوائل من يبينها له : الأب ، بالإضافة إلى المدرسة والمؤسسات الثقافية والمصادر الإعلامية .

ولما كانت هذه المرحلة من أخطر مراحل العمر ، حيث يميل النشء إلى التأكيد على الذات ، فيرفض كل ما يحمل طابع الأمر والإلزام ، ويتذمر على كل وصاية تفرض عليه ، فقد نصح الرسول ﷺ الآباء بألا يكون تصرفهم مع النشء فى هذه المرحلة قائماً على أساس الأمر والطاعة ، أى أن الأب يأمر ، وعلى الابن – والبنت – أن يطيع ، دون أدنى مناقشة ، بل نصحهم بأن يكون التفاعل بينهما قائماً على أساس المشاورة والنصح ، وليس الإلزام من طرف ، والالتزام من طرف آخر ، حتى لا يصاب الولد – أو البنت – بالكبت ، فينفجر ، ويتمرد على الأب ، و يقوم بعملية موازنة بين الطرف الضاغط عليه من جهة الأب ، وبين توازن القوى الكامنة فى داخله لتأكيد الذات ، فيقع فيما يشبه أن يكون انفصاماً فى الشخصية ، إذ يتظاهر أمام أبيه بالرضوخ لأمره ، فإذا ما بعد عن عينه ، مارس كل ما يؤكد ذاته ، غير عابئ بما ينتج عن ذلك من آثار سلبية . بل إن رد الفعل العنيف لحالة الكبت التى تحيط به فى محضر أبيه ، يجعله يندفع اندفاعاً شديداً فيما حرم عليه على أساس ديكتاتورى ، عندما يغيب عن أبيه ، وما أكثر الأوقات التى يقضيها بعيداً عن رقابة الأب .

ولهذا بين الرسول ﷺ للمسلمين أنه ينبغى أن تكون تربيتهم لأبنائهم فى هذه المرحلة قائمة على أساس التفاهم والتشاور ، كما لو كانا صاحبين ، وليس على أساس الإجبار

والإلزام ، انظر إلى قوله ﷺ : "**.....وصاحبه سبعاً ...**" ، أى اتخذه صاحباً وصديقاً ، فكما أنه ليس بين الصديقين طرف مُلْزِم ، وآخر ملتزم ، بل يكون الوصول إلى قرار فى أى أمر من الأمور التى تربطهما على أساس النصيحة والفهم ، بعد المناقشة والتشاور ، فكذلك ينبغى أن تكون سمة العلاقة بين الأب والابن فى المرحلة الثالثة ، وهى التى تبدأ فى سن الرابعة عشرة . ثم تأتى مرحلة الاستقلال التام عن الأب ، وهى التى تبدأ فى سن الحادية والعشرين ، لأن نضجه قد اكتمل ، فأصبح قادراً على الإدراك والتمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار .

أظن أنه لا يمكنّ لأحد بعد هذا البيان أن يقول : إن الإسلام يميل إلى الديكتاتورية ، مستدلاً على ذلك بما يشاهده فى المجتمع الإسلامى المعاصر من تحكم الآباء فى الأبناء ، وممارسة سلطة الديكتاتورية فى تربيتهم وتوجيههم ، إذ ليس ما يمارسه المسلمون حجة على الإسلام ، لأنهم – ككل شعوب الأرض فى تطبيق مبادئ العقيدة – قد ينحرفون عن جهل ، أو خضوعاً لتقاليد لا صلة لها بالإسلام . وقد تختفى معالم الإسلام نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية . ولهذا ينبغى على الدعاة أن يركزوا فى دعوتهم للمسلمين على أن يراعوا مبادئ الإسلام فى أسلوب حياتهم ، حتى يكونوا صورة صادقة للإسلام ، تجذب غير المسلمين إلى التفكير فى العقيدة التى هذبت أخلاق المسلمين ، وقومت سلوكهم ، وإلا فسوف ينفرون من الإسلام بسبب ما يفعله المسلمون ، وبذلك يصبح سلوك المسلمين وسيلة إعاقة فى طريق نشر الدعوة ، بدل أن يكون نموذجاً يقتدى به من يريد الصلاح والإصلاح فى المجتمع الإنسانى .

وضع المرأة

حظى موضوع المرأة باهتمام كبير من المشتغلين بالقضايا الفكرية والاجتماعية ، بل إنه يكاد يحتل المقام الأول لدى المهتمين بوصايا الأديان ومبادئها ، ويأخذ مساحة كبيرة من صفحات الهجوم على الإسلام ، فلا يبدأ كاتب غير مسلم بتناول القضايا الإسلامية إلا ويتخذ وضع المرأة فى الإسلام نقطة انطلاق للهجوم عليه ، بل إن كثيراً من العامة فى البلاد

غير الإسلامية لا يعرفون عن الإسلام سوى نه يبيح للرجل عدداً من الحريم ، ويحرم الخمر ولحم الخنزير . وما ذاك إلا من كثرة إبراز مفكريهم لهذه القضايا ، فهم يتخذون وضع المرأة فى المجتمع الإسلامى المعاصر مادة للهجوم على الإسلام ، فيذكرون أنه أبح للرجل أن يتخذها سلعة ، يبيعها الأب للزوج بثمن يتمتع به هو ، دون أن ينالها منه شيء . ويعاملها الزوج كما يتعامل مع ما يملكه من أثاث ومتاع . فلا رأى لها ، ولا اعتبار لوجودها عند اتخاذ قرار زواجها ، ويُضْرَب بمشاعرها وأحاسيسها عرض الحائط ، فلا يهتم الزوج بما تميل إليه ، أو ترغب فيه فى مسائل الحياة وشئونها .

ويقدم المجتمع الإسلامى لهؤلاء مادة يستدلون بها فى هجومهم على الإسلام ، ذلك أن السائد بين المسلمين — وخاصة فى أوساط من يتظاهرون بالتمسك بالدين — أن لا رأى للمرأة فى زواجها ، فأبوها يختار لها زوجها ، أو يوافق على من يتقدم إليها ، دون أن يستشيرها ، فإن عارضت أجبرها بالقوة على الرضوخ لأمره . فتساق إلى زوجها كما تساق الأنعام إلى مذبحها . كما أن بعض الآباء يستولى على ما يدفعه الراغب فى الزواج منها من مهر ، لأنه يعتقد أن من حقه أن يأخذه لقاء تربيتها . وليست حياتها عند زوجها بأفضل منها عند والدها ، فلا تستشار فى أمر من مور الحياة ، بل عليها السمع والطاعة حتى فى أخص شئونها .

ولا يتفق هذا الوضع مع ما أعطاه الاسلام للمرأة من حقوق ، فهو لم يفرق بين الذكر والأنثى فيما فرضه على الآباء ، وأوصاهم بالقيام به لأبنائهم :

فالتعليم حق للبنت ، كما هو حق للولد ، فإذا حرم أب ابنته من هذا احق ، فلا ينبغى أن يتعلل بما يفرضه الإسلام على سلوك المرأة ، لأن ذلك يسيء إلى صورة الإسلام بين الراغبين فى دراسته ، والبحث فيه عن حقيقة فقدوها فى مجتمعاتهم ، فينصرفون عنه إلى وجهة أخرى ، أو يهاجمونه إن كانت لديهم وسائل الهجوم ، فيشوهون صورته أمام العامة من قومهم .

كما نص الإسلام على أخذ رأى المرأة فى زواجها ، فإن رفضت فلا يحق لأحد أن يجبرها ، بل إنه لا يصح العقد إلا بموافقتها ، إذ أن من شروط صحة العقد أن توافق المرأة

عليه ، ولهذا يجب على الولى عند عقد الزواج أن يبدأ بأخذ رأيها ، ويتأكد من رضاها قبل العقد ، لأن الزواج معاشرة دائمة ، وشركة قائمة بين الرجل والمرأة ، ولا يدوم الوئام ، ويبقى الود والانسجام ، ما لم يكن كل طرف راضياً بهذه الشركة ، ومن ثم منع الإسلام إكراه المرأة – بكراً أم ثيباً – على الزواج ، وإجبارها على الارتباط بمن لا رغبة لها فيه ، وجعل العقد عليه قبل استئذانها غير صحيح ، وأعطاها الحق فى المطالبة بفسخه ، وإبطال تصرفات الولى ، إذا عقد عليها بدون استئذانها .

فعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **لاتنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن** » . قالوا : يارسول الله ! كيف إذنها ؟ قال : « **أن تسكت** » . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته . قال : فجعل رسول الله ﷺ الأمر إليها ، فقالت : قد أجزت ما صنع أبى ، ولكنى أردت أن أعلم النساء ، أن ليس للآباء من الأمر شيء ...

كانت المرأة فى الجاهلية مهضومة الحق ، مهيضة الجناح ، لدرجة أن وليها كان يتصرف فى مالها ، فلا يدع لها فرصة التملك ، ولا يمكنها من التصرف ، فجاء الإسلام برفع هذا الظلم عنها ، إذ أعطاها الحق فى التصرفات المالية ، كما فرض لها مهراً عند الزواج ، وجعله حقاً خالصاً لها ، فليس لأبيها ، ولا لأقرب الناس إليها أن يأخذ منه شيئاً إلا برضاها واختيارها ، يقول تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء : ٤] ، أى وآتوا النساء مهورهن عطاءً مفروضاً لا يقابله عوض ، فإن أعطين شيئاً من مالهن خوفاً أو خديعة فلا يحل أخذه ، يقول تعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء : ٢٠ – ٢١]

فلو ظهر فى المجتمع الإسلامى ما يخالف هذه الوصايا ، كأن يأخذ والد الفتاة مهرها ولا يعطيها شيئاً منه ، أو يسترد الزوج منها ما دفعه لها مهراً بأسلوب التأثير النفسى ، أو بطريق التلميح بالتهديد والوعيد ، فإن ذلك يتنافى مع مبادئ الإسلام ، ومن يمارسه فإنه يرتكب إثماً مبيناً . وعليه فلا يمثل هذا التصرف جانباً إسلامياً ، بل هو انعكاس لتقاليد بعيدة عن الإسلام ، و اتباع لعادات أعلن الإسلام الحرب عليها منذ أن نزل الوحى على محمد ﷺ . وما تفرضه التقاليد والعادات التى لا تمت إلى الإسلام بصلة ، لا يعد حجة على الإسلام وتعاليمه . ويجب على الباحثين أن يفرقوا بين النصوص الإسلامية ، وبين ما يجرى على أيدى المسلمين فى المجتمعات الإسلامية ، لأنهم – مثل غيرهم من أتباع الأديان الأخرى – قد ينحرفون عن مبادئ دينهم ، وسلوك المنحرف لا يمثل عقيدة المنتمى إليها رسمياً ، لأنه – طبقاً لمبادئها وتعاليمها – قد بعد عن إطارها ، وخرج عن ساحتها .

وعندما تنتقل المرأة إلى بيت زوجها ، تجد الإسلام قد كفل لها من الحقوق ما يحفظ كرامتها ، ويحمى شعورها ، ويؤمن سعادتها ، ذلك أنه أمر الزوج بأن يرعى حقها فى العيش حتى يسود الوئام بينهما ، وتظلهما مظلة السلام ، يقول تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء : ١٩] ، أى يجب أن يكون الزوج رقيقاً مع روجته ، فلا يعاملها بغلظة وخشونة ، ولا يجرح كرامتها ، أو يسيء لسمعتها ، يقول رسول الله ﷺ : **" أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم "**. فإكرام المرأة دليل على الشخصية المتكاملة ، وإهانتها علامة على الخسة واللؤم ، يقول رسول الله ﷺ : **" ما أكرمهن إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم "**.

إن السلوك القائم على احترام كلٍّ للآخر ، وحفظ حقوق المرأة فى جميع أطوار حياتها مطلب إسلامى ، رفع به الإسلام مكانتها ، بحيث أصبح لها من الحقوق ما ليس لمثيلاتها فى الأديان والمذاهب الأخرى ، فقد أعطى لها الحق فى أن تحتفظ بمالها لنفسها ، وتستثمره كما تشاء دون أن يتدخل الرجل ، فيفرض رأيه عليها ، أو يرغمها على اتجاه معين ، فهى مستقلة فى المعاملات المالية استقلالاً تاماً . كذلك مكنها الإسلام من التعبير عن رأيها دون

خوف أو خجل . وفى التاريخ الإسلامى أمثلة تثبت هذا الحق وتؤكده ، فقد اعترضت امرأة على عمر بن الخطاب أمام الناس جميعاً ، ولما تبين له صواب رأيها رجع عن رأيه . ولم يحدث مثل هذا الموقف فى المجتمعات الإنسانية إلا فى القرن العشرين ، بعد أن قطعت البشرية شوطاً كبيراً فى طريق التقدم ، ومع ذلك فلا يقع إلا فى حدود ضيقة . فإذا افتخر المتحدثون باسم الحضارة الحديثة بأن المرأة فى ظل حضارتهم تمكنت من إبداء رأيها ، بعد طول كبت وتحكم فيها ، وتسلط على إرادتها ، فلا ينبغى أن ينسوا أن الإسلام مكنها من ذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .

فالمرأة حرة فى اختيار شريك حياتها ، ولها الحق فى تصريف شئونها ، وتدبيرْ أموالها بنفسها ، فلا يتدخل أحد فى هذا الأمر إلا بإذنها ، ولا يحق لأحد أن يجبرها على شيء لا ترضى عنه ، كما أن لها الحق فى إبداء رأيها فى الشئون العامة والقضايا الاجتماعية ، ومن ثم فلا ينبغى أن يعتمد الباحثون على واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، لأن معظم ما فيها من عادات وتقاليد ليست إسلامية محضة ، فهى تحمل فى كثر من جوانبها معالم غير إسلامية ، دخلت هذه المجتمعات فى عصور الضعف والانحلال .

كما أن على المسلمين أن يدركوا أن واقع حياتهم يؤثر على الدعوة الإسلامية سلباً وإيجاباً ، لأنه ليس فى إمكان العامة التفريق بين المبادئ ، وبين سلوك معتنقيها ، فصورة الدين تنطبع فى ذهنهم طبقاً لما عليه سلوك المؤمنين به ، فإن كان سلوكاً طيباً حبب الإيمان إلى قلوبهم ، وإلا نفروا منه ، وكفروا به .

حرية النقد

رسم الإسلام معالم العلاقة بين أفراد الأسرة على نحو يحفظ لكلٍّ استقلاله الشخصى فى إطار الحياة الاجتماعية ، داخل الخلية التى يتكون منها المجتمع ، فلا يجوز لأحد أن يطغى على شخصية الآخر ، فيتحكم فى أسلوب حياته تحكماً يلغى كيانه ، أو يمنه من التعبير عن أفكاره واختيار ما يلائمه ، وما تميل إليه عواطفه وإحساساته ، بشرط ألا يخرج عن الإطار العام الذى يحفظ تماسك الأسرة ، ويحميها من التفكك والانحلال ، ويقيها من الضعف

والهزال . ولا يكون ذلك إلا بإعطاء حق حرية التعبير لكل فرد من أفرادها ، واختيار ما يراه مناسباً له ، مع الاحتفاظ بحق رب الأسرة فى التوجيه والإرشاد فى اتخاذ القرارات المناسبة ، بعد بيان أسبابه ومبرراته .

ولما كانت الأسرة هى نواة المجتمع ، فإذ ما قرره الإسلام داخل الأسرة ، لا يختلف عن الإطار الذى رسمه للعلاقة بين الناس فى الحياة العامة . فقد اعطى كل مسلم حرية النقد والتوجيه ، حتى ولو تعلق ذلك برئيس الدولة نفسه ، فليس لأحد الحق فى منع الناس من نقد أى شخصية ، سواء كانت عامة أو خاصة . ذلك أن النقد المسيء ، ومحاولة إبعاده عن السلوك المعوج ، فرض على كل مسلم بموجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن لم يقم المسلمون بهذا الواجب ، فقد حقت عيهم لعنة الله ، ويوم القيامة يعاقبون على ذلك بأشد العقاب . فلن يعفو الله عمن لا يمارس الحرية التى أعطاها الله له لتقويم المعوج ، إلا إذا كان عاجزاً حسياً أو معنوياً عن تأدية هذا الواجب ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٧-٩٩] ، فلا يعفى من الإسهام بالرأى فى الحياة العامة ، وإبداء النصح لأولى الأمر – وإن اقتضى الأمر مجاهدتهم بالكلمة والقلم ، إن انحرفوا فى تسيير أمور الدولة – إلا هذه الفئة التى لا تقوى على هذا الأمر ، وهم : النساء ، والصبيان ، والضعيف من الرجال . فمن لم يندرج تحت هؤلاء فعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وبالتعبير المعاصر : لا يعزل نفسه عن الحياة العامة ، بل يسهم فيها بالرأى والتوجيه دون خوف من حاكم ، أو خشية من أمير ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : " **إذا هابت أمتى أن تقول للظالم : يا ظالم ! فبطن الأرض خير لهم من ظهرها** " ، أى أن حياتهم أصبحت لا معنى لها ، فصاروا فى وضع يكون الموت فيه أشرف وأكرم من هذه الحياة التى لا يملكون فيها شيئاً ، حتى مجرد إبداء رأيهم فى القرارات التى تشكل مصيرهم .

فحرية التعبير ليست حقاً فقط فى المجتمع الإسلامى ، بل هى واجب على كل قادر ، فمن يستطيع ممارسة هذه الحرية بالقول – عن طريق اللقاءات والندوات – فلا ينبغى أن يتكاسل عن هذا العمل ، بل يجب عليه السعى بكل ما أوتى من قوة وجهد لإيصال كلمة الحق – أو ما يعتقد أنه حق – إلى أكبر عدد من الناس . ومن يرى أن بإمكانه التعبير عن رأيه بالقلم ، فعليه أن يستخدم كل وسيلة ممكنة لنشر آرائه على الناس . فإن فرط أفراد الأمة فى هذا الواجب ، سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، فيسقيهم مراً ، ويطعمهم حنظلاً ، ويومئذ لا يستطيعون الخروج من سجنه ، ولا التخلص من زبانيته ، يقول رسول الله ﷺ : **" والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة ، وأعوان خونة ، وعرفاء ظلمة ،وقراء فسقة ، سيماهم سيماء الرهبان ، وقلوبهم أنتن من الجيف ، أهواؤهم مختلفة ، فيفتح الله عليهم فتنة غبراء مظلمة ، فيتهاوكون فيها . والذى نفس محمد بيده ، لينقضنّ الإسلام عروة عروة ، حتى لا يقال : الله ....الله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم يسومونكم سوء العذاب ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ، ولا يوقر كبيركم "** ، ويقول ﷺ : **" والذى نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد السفيه ، ولتأطرن على الحق أطراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً ، ثم ليلعنكم كما لعنهم "** .

لا يوجد نظام على وجه الأرض – سواء كان فى الأمم السابقة ، أو فى الأمم المعاصرة – يفرض على أتباعه أن يُقَوِّموا المعوج – حتى ولو كان حاكماً– بالكلمة والقلم سوى الإسلام ؛ إذ يرى الإسلام أن من رأى انحرافاً ولم يعمل على تقويمه – وهو قادر على ذلك – فعليه لعنة الله . فإذا افتخر أنصار الحضارة الحديثة بأنها أعطت الفرد حرية التعبير عن رأيه بالقول والقلم ، وتباهوا على النظم الأخرى بأن إعطاء الفرد هذا الحق هو اعتراف بكيان الإنسان ، وتقدير لدوره فى الحياة ، الأمر الذى لم يحدث من قبل على امتداد التاريخ الإنسانى ، فحق للمسلم أن يعلو فوق هذه الادعاءات ، ويتقدم ركب هؤلاء الذين يتغنون

بفضل الحضارة الحديثة فى هذا المجال ، بل له الحق فى أن يعلن على الملأ أن ما وصلت إليه الحضارة الحديثة فى مجال تأمين حرية الكلمة لا يدانى ما أعطاه الإسلام للإنسان ، إذ أنه لم يعطه هذا الحق فحسب ، بل أوجبه عليه ، وأنذر من يتقاعس عنه بالويل والثبور ، وأنذره بأن حياته فى هذه الحياة سوف تنقلب إلى عذاب أليم ، لو سكت عن الحق ، ولم يمارس حرية النقد لما يراه غير مستقيم فى المجتمع . ومما لاشك فيه أن من يهيئ لك الأخذ بأسباب الكرامة ، أقل قدراً ممن يحثك بكل وسائل الترغيب والترهيب على ممارسة ما يكوّن شخصيتك ، ويُثَبِّت كرامتك ويعمق إحساسك بإنسانيتك ، فشتان بين من يعرضها عليك ويعطيك الحق فى ممارستها ، وبين من يحملك عليها حملاً ، ويدفعك إلى ممارستها دفعاً .

وليس هذا هو الفرق الوحيد بين حرية التعبير فى المجتمعات المتحضرة ، وبين ما فرضه الإسلام على المسلم فى هذا المجال ، ذلك أن التطبيق الكامل للحرية لم ير النور بعد فى المجتمعات المعاصرة ن فكثيراً ما يرى المرء فى كثير من جوانب الحياة ، أن الأمور فيها محكومة بقواعد وأساليب تتنافى مع حرية لرأى ، بل إن دعاة الحرية أنفسهم يتنكرون لها إذا ما تعلقت بشعوب أخرى ، وأجناس غير أجناسهم ، أو إذا ما تصادمت مع مصالحهم على الصعيد الدولى . أما فى الإسلام فقد مارس المسلمون فى الصدر الأول نوعاً من الحرية لم تعهده البشرية على طول تاريخها ، فقد رسم أبو بكر ﷺ – وهو أول " حاكم للمسلمين بعد رسول الله ﷺ إطاراً للحرية لم يتطرق إلى ذهن أحد من الحكام قبله ، فقال : " أيها الناس ! إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوِّمونى ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ".

وكذلك طلب عمر بن الخطاب من المسلمين أن يقوِّموه إن رأوا فيه اعوجاجاً . فهذه دعوة من حاكم إلى رعيته ليمارسوا نقد ما يرونه غير صالح ، ولا تكون إلا من نفس عالية ، تربت على مائدة النبوة ، وتشربت بمبادئ الإسلام ، ثم نرى تجاوباً من الرعية ، فيروى أن رجلاً أجابه فى هذه الخطبة قائلاً : " والله ، لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوَّمناه بسيوفنا ". فهذا التعليق ، وإن بدت فيه جفوة الأعراب ، وحدَّة البدائيين ، إلا أنه يعبر عن مدى حرية الكلمة فى ظل الدولة الإسلامية ، بل إن رد عمر عليه يعتبر وساماً من الأوسمة

obeikandi.com

التى تتحلى بها الأمم فى تاريخها ، وضوءاً ساطعاً فى صفحات المسلمين ، يطغى على ادعاءات المتحدثين باسم الحرية السياسية فى هذا العصر ، إذ لم يتصد رجال الأمن للرجل فيخرسوه ، أو يخرجوه من الاجتماع ، لأنه لم يلتزم الأدب فى مخاطبة الرجل الأول فى الدولة ، ولم يسحلوه ، أو يزجوا به فى غياهب السجن ، حيث يفقد أهله أثره ، بعد أن غاب عنهم شخصه ، كما تفعل معظم أنظمة الحكم فى هذا العصر الذى يفخر أبناؤه بالرقى والتقدم ، بل قال له عمر بن الخطاب ﷺ قولته المشهورة : " الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يُقوِّم اعوجاج عمر بسيفه ".

فإذا لم تكن هذه هى معالم الحياة السياسية فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، فهى لا تمثل الإسلام على الإطلاق ، بل انحرفت عنه وتنكرت له ، وأصبحت بذلك عقبة كأداء فى طريق الدعوة إلى الله .

ومن هنا نرى أن مهمة الدعاة فى توضيح التناقض بين واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة وبين الإسلام صعبة للغاية ، لأن صدى حياة المسلمين وسلوكهم أبعد أثراً ، وأعمق غوراً فى نفوس غير المسلمين من كلمات يلقيها الداعية فى جمع من الناس ، أو بيان ينشره فى كتاب لا يقرؤه إلا عدد قليل منهم .

معالم الحرية السياسية

تقوم ظاهرة الحرية السياسية فى المجتمع الإسلامى على مبدأ عام فى الإسلام ، فهى لا ترتبط بشخص معين ، ولا تتعلق بزمن دون آخر ، لأن القرآن الكريم أرسى دعائمها بدعوة المسلمين إلى أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وبينها رسول الله ﷺ شرحاً وتفصيلاً وتطبيقاً ، فقد وردت أحاديث عدة تحث المسلمين على التصدى للباطل ، حتى ولو كان الأمر يتعلق بالحاكم ، يقول رسول الله ﷺ : " **إذا هابت أمتى أن تقول للظالم : يا ظالم ! ، فقد تودع منهم** " ، ويقول : " **ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ، هم أعز وأكثر ممن يعمله لم يغيروه ، إلا عمهم العذاب** ". ولا يوجد فى مجال التطبيق أوضح مما روى عن أنس بن مالك ﷺ قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى ، غليظ الحاشية ،

فأدركه أعرابى فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد ! مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء .

فى أى حرية يمكن أن يحدث هذا فى ظلها ؟؟؟؟؟

وفى أى مجتمع – مهما بلغت فيه درجة التحضر والمدنية فى المجال السياسى – يستطيع مواطن من الطبقة السفلى – حسب التقسيم الاجتماعى المتعارف عليه فى المجتمع البشرى – أن يقترب من الحاكم . فضلاً عن أن يتجرأ فيجبذه من ردائه بهذا العنف ؟؟؟؟

ومَنْ مِنَ الحكام يسمح لأحد من رعاياه أن يخاطبه باسمه ، فضلاً عن توجيه الألفاظ العارية عن قواعد السلوك والآداب ؟؟؟؟

لقد سمعنا – وعاصرن ، وابتلينا – فى العصر الحديث – وهو الذى يتغنى أربابه بمظاهر الحرية السياسية – بقوانين عجيبة ، مثل : قانون العيب فى الذات الملكية ، قانون العيب ، قانون الطوارئ ، قانون سيادة الدولة ، قانون أمن الدولة .... وغير ذلك من الإجراءات التى توئد الحرية فى مهدها ، بل تجهضها قبل أن ترى نور الحياة ، أو يحس بوجودها المعذبون فى الأرض ، والمضطهدون فى ظل الديكتاتوريه السياسية . لكنها النبوة ، هى التى وجهت محمداً ﷺ إلى السلوك فى هذا الطريق ، كى يعلم المسلمين ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم!

علاقة فيها شفقة الأب على ابنه ، وحنان الأم على وليدها ، وحب الأخ لأخيه ، ومسامحة الصديق صديقه ، ورحمة الكبير الصغير .

كما أنها تقوم على الوقوف فى وجه الطغاة ، بالنصح تارة ، وبالتصدى لهم بالقوة – إن اقتضى الأمر – تارة أخرى ، وهو فى كل ذلك ملتزمون بقول رسول الله ﷺ : " **الدين النصيحة** " ، وعندما سأله الصحابة عمن تكون له النصيحة ، أجابهم بقوله : " **لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم** ". وروى أن عمر بن الخطاب خطب

يوماً ، فقال : " أيها الناس ! اسمعوا وأطيعوا ! فقال رجل : لا نسمع ولا نطيع ، أنت ترتدى جلباباً طويلاً ، وأنت رجل طويل وعملاق ، والملابس التى جاءت لا تكفى الواحد منا مع قصره ، فمن أين لك هذا ؟ فقال عمر : قم يا عبد الله بن عمر ، حِّث الناس ، فأخبرهم عبد الله بأنه أعطى قطعته لأبيه فجعل منها مع نصيبه ثوباً ، قال الرجل : فالآن نسمع ونطيع . فالنصح للأئمة ، وهم قادة الدولة ، يعبر عنه فى العصر الحديث ، بالنقد ، فإذا جاز للمسلمين أن ينقدوا الحاكم ، فتلك هى الحرية السياسية ، ولو كان ذلك فرضاً عليهم ، كان مبدأ الحرية من معالم البنية الأساسية فى المجتمع .

عرف المسلمون هذا ، فساروا على هديه ، واتبعوا طريقه ، فكان للحرية مكان فى مجتمعاتهم ، ولم تقتصر هذه الظاهرة على عهد الخلفاء الراشدين ، بل وجدت فى كل عصر عرف الوالى فيه طريقه إلى الله ، فلم يوجد تفاضل فى الدولة الإسلامية إلا على أساس العمل الصالح ، إذ لم يميز الحاكم عن الرعية فى أى جانب من جوانب الحياة ، فلم يكن له ميزات اجتماعية أو مالية . بل إن الإسلام خول لأفراد الأمة سلطات على الحاكم بما لهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وبالتعبير المعاصر : النقد والمعارضة ، أى الحرية السياسية — تطبيقاً لقول رسوا الله ﷺ : " **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** ".

ولما كان من العسير أن يقوم كل واحد بمهمة النقد ومعارضة الحاكم فيما يراه خطأً ، فقد جعله الإسلام فرض كفاية ، أى يجوز أن ينوب عن الجميع من يستطيع القيام بهذه المهمة ، فكل من يجد فى نفسه القدرة على ذلك ، فعليه أن يبذل كل ما فى وسعه لتقويم الحكام والولاة ، والحيلولة بينهم وبين الاعتداء على الحقوق الفردية ، والحريات العامة .

ولا يملك الحاكم فى ظل الدولة الإسلامية إلا تنفيذ ما جاء فى القرآن الكريم ، وما وصى به رسول الله ﷺ ، فإن احتمل النص أكثر من وجه ، فعليه أن يلتزم برأى جمهور العلماء (أى الأغلبية فى الجهاز التشريعى وهو بمثابة البرلمان فى العصر الحديث) ، ولا يجوز له إصدار قرار ، أو اتخاذ إجراء إلا بعد استشارة من حوله من أهل الخبرة والاجتهاد ، كلٌّ فى

تخصصه ، وعليه سماع الرأى المعارض ، ومناقشته بصدر رحب ، وأن يهيئ الظروف الأمنية للمعارض حتى يستطيع التعبير عما عنده ، دون ضغط أو تلميح بالبطش والتعذيب .

هذه هى المرتكزات الأصلية التى يجب أن يقوم عليها الحكم فى الإسلام ، فمن يلتزم بها كان معبراً عن روح الإسلام ، ومطبقاً له ، وبالتالى يمكن للدعاة أن يوضحوا لغير المسلمين أن هذا هو النموذج الذى ينشده الإسلام فى مجال الحكم ، فعليهم أن يدرسوه ويتفهموه إن هم رغبوا فى معرفة مبادئ الإسلام فى هذا المجال .

أما إذا تنكر الحكام لهذه المبادئ ، فسوف ينفرون الناس من الإسلام ، لأن غير المسلم ينظر إليهم على أنهم يمثلون الإسلام ، وبالتالى فما يمارسونه إنما هو تطبيق لتعاليم هذا الدين .

ومن هنا تبدو أهمية التزام الحكام بمبادئ الإسلام ، حتى يكونوا قدوة يسير على نهجها المسلمون ، ويهتدى بها غير المسلمين .

تصحيح

يشيع أعداء الإسلام — ومن يدور فى فلكهم من المسلمين — فى المجتمع الدولى أن مبادئ الإسلام وقواعده فى مجال الحرية السياسية لا تصلح لهذا العصر ، فمعارضة الحكام التى تحدثت عنها كتب التراث لا تخرج عن كونها أسلوباً اقتضته ظروف العصر ، وأنماط الحياة السياسية فى القرون الأولى ، وهى لا تتناسب مع حياة المجتمعات فى العصر الحديث ، ومن ثم فلا يصلح فى مجال السياسة اليوم إلا النظام الديمقراطى الغربى ، وهو القائم على أساس تعدد الأحزاب ، وانتخاب هيئة تشريعية — وهى التى يطلق عليها : البرلمان — لسن التشريعات والقوانين الملائمة للعصر ، ولتقوم بدور الرقابة على الهيئة التنفيذية ، بما فيها رئيس الدولة نفسه . ولما كان الإسلام ، أو بتعبير أدق : رجال الدين الإسلامى لا يجيزون قيام مثل هذه المؤسسة ، بدعوى أن المشرع هو الله ، فقد أثبتوا بذلك أنهم يريدون للمجتمع أن يعود إلى الوراء أربعة عشر قرناً . الأمر الذى يعوق مسيرتنا عن التحرك ، فنقف جامدين أمام متطلبات العصر ، ويكون مآلنا إلى التخلف ، بل إلى موت جميع مناحى الحياة .

وتبدو هذه المقولة لمن لا علم له بتعاليم الإسلام مقبولة ، ومسلم بها فى جميع جوانبها ، غير أن أهل الذكر يرونها عارية عن الصحة ، ولا يقبلها إلا السذج من الناس الذين لا علم لهم بتطور الحياة وسننها ، واختلاف الأقطار وسكانها ؛ ذلك أن النظام الديمقراطى الغربى لا يصلح للتطبيق فى جميع الظروف ، وعلى امتداد مختلف الأزمنة ، فهو وإن كان مناسباً لحياة كثير من سكان الأرض ، فقد لا يناسب حياة بعض المجتمعات . وعلى فرض أنه ممكن التطبيق فى جميع المجتمعات المعاصرة ، فقد تطرأ أمور تجعله غير صالح ، مما يؤكد أنه نظام مؤقت بظروف وملابسات معينة ، ومالنا نحمل هذه النتيجة على احتمال مستقبلى ، قد لا يحدث ، وأمامنا ما يبيّن لنا بما لا يدع مجالاً للشك أنه ليس نظاماً عاماً وشاملاً ، فحياة المجتمعات الإنسانية فى القرون الأولى — وبالتالى فيما يشبهها اليوم فى بعض مناطق الأرض — لم تكن مناسبة لتطبيق هذا النظام ، وعليه فهو محدود بأطر معينة من معالم الحياة الإنسانية ، فإذا ضاعت هذه الأطر صار غير ملائم للتطبيق . وذلك هو شأن التفريعات والجزئيات فى كل نظام يتعلق بالإنسان ، لأن اختلاف البيئات وتباين أشكال الحياة يقتضى التغيير والتبديل فى جزئيات النظام وتفاصيله ، أما المبادئ العامة والمرتكزات الأساسية فهى عامة ومشتركة بين الناس جميعاً .

وهذا هو ماجاء به الإسلام ، فقد حرم الاستبداد بالرأى ، حتى على النبى نفسه ، فقال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ويؤخذ من هذا عدم أحقية أى حاكم فى الانفراد بالسلطة ، أو الاستبداد برأيه ، فأولى بمن هو دون النبى أن يلتزم بالشورى . كذلك أمر المسلمين بان يكون الأمر بينهم شورى ، فقال تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨]

فالقاعدة فى المجتمع الإسلامى أن تكون السيادة للشورى بين الحاكم والرعية ، وبين المسلمين بعضهم مع بعض ، فلا انفراد برأى ، ولا استبداد بسلطة ، بل نقاشاً ومشاورة ، واستطلاعاً للرأى واتفاقاً على القرار .

ولكن بأى أسلوب تكون المشاورة ؟ أتكون بالمداولات الفردية ؟ أم بعقد لقاءات مهنية ؟ أم على هيئة مناقشات يشترك فيها كل الناس ؟ أم بواسطة نواب يختارهم الشعب ؟

لم يحدد الإسلام أسلوباً معيناً ، وذلك لاختلاف ظروف الناس ومشاكلهم وملابسات معيشتهم ، إلا أنه بيَّن أن من يستشار ، أو من يكون له الحق فى إبداء الرأى ، ينبغى أن تكون له القدرة على فهم أبعاد المسألة التى يدلى فيها برأيه ، حتى يكون رأيه قائماً على أساس علمى ، ومرتكزاً على تصور سليم ، يقول تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] ، فيسأل الفقهاء فى المسائل الشرعية ، والمهندسون فى مجال الهندسة : تطبيقية ، أو مدنية أو إنشائية ....أو ....أو ....إلخ ، كلٌّ فى مجال تخصصه ، والزراعيون فى الزراعة ، والاقتصاديون فى عالم التجارة والمال ، وهكذا فلا يسأل — ولا يستشار — إلا من يكون على علم ودراية بما يسأل فيه .

كذلك ينبغى على من لا علم لهم ألا يقحموا أنفسهم فى مجال ليس مجالهم ، فلا يدلوا برأى لا يدركون أبعاد نتائجه ، لأنهم يكونون بذلك من العصاة الذين لم يلتزموا ما حدد لهم بحكم خبرهم ، يقول تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران : ٦٦] ، ويقول : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، ويقول : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

الشورى أساس الصلاح

إذا طبق المجتمع مبدأ الشورى فى مجالات الحياة ، سواء كانت أسرية أو اجتماعية ، أو سياسية ، أو غير ذلك من الأنشطة الإنسانية المختلفة والمتنوعة ، استقامت حياة الناس ، واستوت على الطريق السليم ، فلا ظلم ولا عدوان ، ولا استغلال ولا استعباد ، إذ تسد

الطرق أمام الجبابرة والطغاة ، فلا يستطيعون فرض رأى أو تطبيق ما لا تراه الأغلبية صالحاً لحياتهم جميعاً ، وتوصد الأبواب أمام الطامعين والمغامرين فلا يملكون من الوسائل ما يمكنهم من استغلال العامة للاستيلاء على أموالهم ، وليس لديهم فى ظلها ما يهيئ لهم الظروف لاستتراف طاقات العمال لصالح خزائنهم ، أو يمهد لهم الطريق للسيطرة على وسائل الإنتاج ، والتحكم فى أسواق التصريف لينمو رصيدهم ، وتزداد ثروتهم تضخماً على حساب عامة الناس من المستهلكين والمتعاملين فى مجال الحركة الاقتصادية ، لأن الشورى هى مفتاح الأمان فى المجتمع ، تضبط مسار المال ، وتُقوِّم المعوج فى دهاليز الحركة المالية ، وتحافظ على الطاقات الإنتاجية ، بحيث لا يأخذ أحد أكثر من حقه ، ولا يجار على حق أحد ، فيستغل مجهوده لحساب آخر ، فهى بمثابة عجلة القيادة ، تضبط العلاقات فى المجتمع ، حتى لا تنحرف مسيرة الحياة ، فتطغى طبقة على أخرى ، أو تستأثر مجموعة بالموارد الاقتصادية ، بينما يعيش باقى الشعب على الفتات ، الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ، أو يزاحم أصحاب الهيمنة والسلطان ذى الكفاءات والطاقات المنتجة ، فيختل التوازن ، وتهتز القيم ، فيهوى المجتمع فى قاع سحيق ، يحول بينه وبين الاستمرار فى التقدم على طريق الحضارة .

كذلك يتمتع الإنسان فى ظل الشورى بالكرامة الإنسانية ، فلا تهان آدميته ، ولا يمتهن وجوده ، إذ تعطيه الحق فى المشاركة بالرأى والفكر فى بناء مجتمعه ، وتهيئ له وسيلة الشعور بقيمة الحياة داخل إطار مجتمع ، يحس أفراده جميعاً بأنهم شركاء فى تقرير مصيرهم ، ومتكافئون فى تحديد مسار حياتهم ، ومتعاونون – كلٌّ على حسب طاقته وكفاءته – فى بنا مستقبلهم ، فلا حرمان لأحد من المشاركة فى هذا المجال ، بحجة العزل السياسى ، أو المحافظة على أمن الدولة ، أو بسبب الاضطهاد الدينى ، أو العداء الفكرى ، أو الانتساب إلى طائفة معينة ، أو مجموعة محددة ، بل لكل من يعيش فى المجتمع حق الإسهام بما يستطيع فى تكوين وتطوير شكل الحياة الاجتماعية ، بشرط ألا يخرج عن الإطار العام الذى رسمه الإسلام للناس ، وذلك هو المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨] .

ويلاحظ المرء أن الأمر بالشورى ورد فى القرآن الكريم كمبدأ عام – شأنه فى ذلك شأن كثير من المبادئ والتعاليم الإسلامية – ، فلم يحدد الإسلام لتطبيق الشورى شكلاً معيناً ، ولم يرسم لها نموذجاً خاصاً ، بل أطلقها ، وذلك لأن حياة المجتمعات ليست واحدة ، فمشاكلهم وظروف حياتهم مختلفة ومتنوعة ، فلو حدد لها شكلاً خاصاً لكان فى ذلك إحراج لمن لا تصلح حياتهم لتطبيقه، فإما أن يطبقوه فتسوء أحوالهم ، وإما أن يتركوه ويطبقوا ما يناسبهم من الأنظمة ، فيكونون بـذلك قد خالفوا تعاليم دينهم .

ولهذا اهتم الإسلام بتثبيت المبدأ العام ، وهو : " الشورى " ، وترك صورة تطبيقها للناس ، يكيفون صيغتها حسب ظروفهم وأحوالهم . ولاشك أن هذا هو أحد الأدلة التى تثبت للناس جميعاً – سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين – أن الإسلام عالمى ، زماناً ومكاناً ، فهو صالح للتطبيق فى كل المجتمعات ، رغم اختلاف أحوال الناس ، وتباين بيئاتهم ، كما يتناسب مع متطلبات كل عصر ، مهما بلغت فيه درجة التقدم والحضارة .

بين العلمانيين ورجال الدين

تدور معارك فى كثير من الأقطار الإسلامية بين العلمانيين وبين رجال الدين حول الأخذ بمبدأ الديمقراطية ، إذ يرى العلمانيون أن هذا النظام هو النموذج المثالى لحكم الشعوب فى العصر الحديث ، ذلك أنه يتيح لكل فرد فرصة اختيار نوابه عن طريق تعدد الاتجاهات ، وتنوع البرامج الحزبية ، فهو مخير بين عدة خيارات يختار منها ما يلائم حياته ، وما يحقق مصلحته ، وما يتفق مع نظرته للحياة ، وموقفه من الوجود كله . فإذا ما فاز اتجاه برأى الأغلبية ، فعلى الجميع أن يسلموا بأحقيته فى تسيير دفة الحكم ، مع إعطاء الاتجاه المعارض حق مناقشة القوانين واللوائح التى يتقدم الحاكمون بها إلى المجلس المنتخب لإقرارها كأساس لتطبيق النظام فى المجتمع ، وبهذا لا ينفرد شخص بتقرير مصير الأمة ، ولا يكون لمجموعة ، او هيئة ، أو حزب حق الاستيلاء على السلطة بدون تفويض من الشعب ، كما لا يجوز للسلطة التنفيذية اتخاذ أى إجراء يتعلق بمصالح الناس ، إلا إذا أجازه من اختارهم الشعب ليمثله فى توجيه أمور الدولة ، فالتوازن بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية

يحفظ نظام الدولة من التداعى والانهيار ، والاعتراف بحق نواب الشعب فى مساءلة رجال الإدارة والحكم فيما يمارسونه بحكم وضعهم الوظيفى ، يحمى المواطنين من قسوة الحكام وظلمهم ، ويحافظ على مصالحهم ، ويؤمن حياتهم ، ويرسى قواعد الاستقرار فى الأمة .

بينما يرى بعض رجال الدين أن هذا من النظم التى أقرتها العلمانية ، وما دامت العلمانية لا تعترف بوجود الدين — كما هو الحال فى العلمانية المتطرفة — أو لا ترى باساً من وجوده - كما هو الحال فى العلمانية المعتدلة - ، غاية الأمر أنه ينحصر فى ظلها فى مجال العبادات — والأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والميراث) - ، فليس له سلطان على التشريعات واللوائح التى تضبط مسيرة الحياة ، وإنما مركز التشريع ومصدره هو البرلمان المنتخب من الشعب ، ولا مصدر غيره ، فلا يجو لشعب مسلم أن يقر هذا النظام كنموذج له فى الحكم ، لأن المشرع هو الله ، وليس البرلمان . ثم يتطرق المتطرفون من رجال الدين إلى مظاهر هذا النظام المتعددة ، فيحرمونها كلها إذ يرون أن نظام تعدد الأحزاب ليس إسلامياً ، لأنه يفرق الأمة شيعاً وأحزاباً ن ولذلك فهو غير جائز ، كما أن تسمية البرلمان بالهيئة التشريعية حرام ، لأن المشرع هو الله .

ربط العلمانيون — على غير أساس علمى تاريخى — هذا الموقف بما كان عليه الحال فى أوربا إبان العصور الوسطى ، إذ تصوروا وضع السلطة البابوية آنذاك ، يوم أن كان البابا والمطارنة والقسس يحللون ما يشاءون ، ويحرمون ما يشاءون ، ويدخلون الجنة من يردون ، ويقذفون فى النار من يكرهون . وتراءت فى أذهانهم صور صكوك الغفران والحرمان ، حيث قاسى منها الحكام والأمراء الكثير من المتاعب والآلام ، بل إن الشعوب نفسها اكتوت بنارها ، وذاقت جحيم أوارها وسعيرها ، فتصوروا — أى العلمانيين — أن تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجال الحكم والإدارة سيخلق مثل هذا الوضع فى المجتمع الإسلامى ، حيث يتحكم رجال الدين فى كل سيء ، دون أن يكون لأحد الحق فى الاعتراض أو المناقشة ، لأنهم محصنون بسياج قدسى ، لا يجرؤ أحد على تخطيه ، اللهم إلا من خلع رداء الإيمان .

فأى مسلم يستطيع أن يضع نفسه فى هذا الموقف ؟

لا أحد !

وتكون النتيجة القضاء على كل صوت معارض ، فتترعرع الديكتاتورية الدينية ، وتضيع حقوق الناس بين فكيها ، وتهدر كرامة الإنسان تحت أقدامها ، كما حدث فى القرون الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تبسط سلطانها على جميع مجالات الحياة .

إن هذه الصورة لا وجود لها فى الإسلام على الإطلاق ، إذ لا يعرف فى تعاليمه هذا المصطلح المسيحى : رجل دين ، وغير رجل دين ، لأن الكل فى ظل الإسلام مسلمون ، لا فرق فى الحقوق والواجبات بين رجل وآخر ، وليس فى الإسلام عصمة لأحد من الخطأ كما هو الحال فى المسيحية بالنسبة للبابا ، فكل مسلم خطاء ، ومادام الأمر كذلك فلكا أحد الحق فى المعارضة ، لأنه لايوجد رأى لا يجوز معارضته ، وبهذا تنتفى شبهة العلمانيين فى إمكان قيام ديكتاتورية دينية ، إذ مادام الإسلام قد أعطى كل مسلم الحق فى المعارضة ، فلن تقوم فى ظله ديكتاتورية .

أما بالنسبة لما يراه بعض " رجال الدين " من تحريم النظام البرلمانى ، لأنه يدعى لنفسه حق التشريع ، بينما المشرع هو الله ، فلا ينبغى أن يفهم وضع البرلمان على هذا النحو ، ذلك أن تعاليم الإسلام ومبادئه العامة لا يجوز المساس بها ، فهى بمثابة الدستور الذى لا يجوز للبرلمان أن يوافق على تشريع قانون يتعارض مع مبادئه ، فالتشريع يدور فى أمور فرعية تندرج تحت ظل مبادئ الدستور العامة . فإذا أردنا أن نبين طبيعة عمل البرلمان فى ظل تطبيق الشريعة الإسلامية ، فإننا نرى أنها لاتخرج عن إقرار تفسير لنصوص القرآن الكريم دون آخر ، وما أكثر آراء العلماء فى التفسير والتأويل . فنصوص القرآن لا يجوز الخروج عليها صراحة ، كما هو الوضع بالنسبة لعدم الخروج عن الدستور ، وإنما يجوز لأعضاء البرلمان إقرار قانون يتفق مع رأى عالم يرون فيه مصلحة المجتمع ، دون رأى عالم آخر لا يحقق هذه المصلحة ، وبهذا يكون دور البرلمان هو الاختيار والانتقاء من آراء العلماء بما يناسب طبيعة الحياة وظروف العصر .

* * *